

للدكتور صابر محمد دياب حسين

انتشار الاسلام

وحقيقته الاندماج ببلاد المغرب في عصر الولاة

سلك الاسلام في انتشاره في الأرض مسالك شتى ، ودخل الى القلوب من مداخل كثيرة . فما كانت الفتوح الا احدى وسائل المسلمين ، لفتح الطريق امام الدين الجديد ليدخل الى القلوب . فاما المدخل الأكبر فكانت الكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة ، يحملها المسلم المؤمن الى غير المؤمن ، ويبين له فضائل الاسلام ، وما يفتح هذا الدين لمعتنقه من أبواب الخير والأمل واطمئنان النفس . فيستجيب الرجل للاسلام ، ويدخل فيه عن طيب خاطر ورضا نفس ، املا في واسع رحمة الله وثوابه العريض . وكان هذا من أقوى اسباب انتشار الاسلام خلال القرن الأول الهجري . ولا غرو ، فقد كان العرب الذين استقروا في البلاد المفتوحة قوما على خلق ، وحُسن سَمْتٍ ، وايمان بالاسلام عميق^(١) .

في البلد المفتوح . فالأمم الاسلامية ، التي قامت بالفتوح ، وأهمها : العرب ، والترك ، والبربر المستعربون في المغرب لم تفرض الاسلام على الناس بالقوة العسكرية الجبرية ، بل هي ضمت البلاد سياسيا ، وعرضت على الناس الاسلام ، وتركتهم احرارا في أمر الدين (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) إن بقي على دينه ويدفع الحزبة . لأن النظرية الاسلامية العامة كانت - فيما يتعلق بأهل الديانات السابقة - تتبع نص الآية الكريمة ﴿ لا اكراه في

والممتنع للتاريخ العام لانتشار الاسلام ، ونشوء ما يعرف اليوم بالعالم الاسلامي يجد أنه قد تكون : اما نتيجة لفتوح عسكرية مدت نطاق دولة الاسلام الى مناطق غير اسلامية مما يليها ، او عن طريق انتشار الاسلام نفسه في بلاد غير اسلامية ، بفضل قوته الذاتية الدافعة وخصائصه نفسها . وعندما نمعن الفكر ، ونجمل النظر ، نجد أن الأعمال العسكرية لم تنشر الاسلام ، وانما هي مهدت له الطريق أو فتحت الباب أمامه ، ثم انتشر الاسلام بنفسه

(١) حسين مؤنس : الاسلام الفاتح ص ١٠ - ١١ .



الدين ، قد تبين الرشد من الغي ﴿١﴾ .

والفكرة الأساسية التي سبّرت المسلمين في هذا الموضوع هي أن الاسلام نعمة من نعم الله على الانسان . فمن اراد الله خيره فتح للاسلام قلبه ، ففاز به . ومن لم يفتح الله عليه فلا معنى لفرض الاسلام عليه ، لأن النعم لا تفرض على الانسان ، بل ينالها من يستحقها . ولهذا فسواء في مصر أو الشام أو المغرب أو ايران ، فتح العرب البلاد ، ودّعوا الناس لدخول الاسلام مبينين لهم فضائله ، ثم تركوهم بعد ذلك يتمثلونه على مهل . وكانت هذه السياسة أكثر فاعلية مما لو كان الفاتحون المسلمون قد أجبروا الناس على اعتناق هذا الدين . لأن الذي يؤمن بالاسلام بارادته واختياره يكون اسلامه صحيحاً شاملاً . ولهذا نرى كيف أن الاسلام لم يدخل بلدا ثم تلاشى منه أبدا ، الا في حالة الأندلس وصقلية ، وكانت لذلك ظروف وأسباب خاصة (٢) .

وقد طالت قصة فتح العرب للمغرب ، وتوالت فيها الانتصارات والهزائم ، حتى قال بعض مؤرخي المغرب أن بلادهم فتحت وارتدت أكثر من اثنتي عشرة مرة . وقد اشتركت جيوش عربية في ذلك الفتح الطويل الأمد ، الذي استغرق نحو سبعين عاما ، أو أقل قليلاً ، لم يتطرق للمسلمين خلالها يأس ولا تردد ، وقادهم فيه قادة عظام أجلاء تفخر

بهم آية امة على وجه البسيطة ، وهم : عمرو ابن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعقبة بن نافع الفهري ، ومعاوية بن حديج الكندي ، ودينار ابو المهاجر ، وزهير بن قيس البلوي ، وحسان بن النعمان الغساني ، وأخيرا موسى بن نصير الذي على يديه تم للمسلمين فتح بلاد المغرب (٣) .

وكان البربر - قبل الفتح الاسلامي - يدينون بديانات عدة منها : الديانة المسيحية المنتشرة في السواحل ، حيث سيادة الدولة البيزنطية ظاهرة واضحة ، بينما اليهودية تنتشر داخل البلاد حيث ينتشر اليهود ، تجارا ومرايين شأنهم في كل حين وأن . وكانت الوثنية أو عبادة الكائنات والظواهر الطبيعية - كذلك منتشرة بين مجموعة كبيرة من البربر البدو .

فلما ظهر الاسلام ، وعم نوره هذه البلاد ، أقبل اهلها عليه متهافتين ، يلتمسون فيه ما يجلو عن صدورهم وافئدتهم غشاوتها ، لتعمر تلك القلوب بنور الايمان واليقين والسكينة والطمأنينة ، بعد أن ران على قلوبهم ما كانوا يفعلون من افك الضلالة والغواية ، وما كانوا يعانون من بطش الحاكمين البيزنطيين وظلمهم . وهم - أي البيزنطيون - الذين كانوا يخالفون اهل البلاد في المذهب ، ولذلك ساموا البربر سوء العذاب .

لهذا كان طبيعيا أن لا تثبت هذه الديانات

(٣) حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ٥٠ - ٥١ .

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٦ ،

(٢) حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ٣٢ .



المعقدة الطقوس ، أمام تيار المد الاسلامي القوي الواضح . لا سيما وقد رأوا أن العرب - وهم حملة رسالة الاسلام عن النبي الكريم محمد ﷺ الى البشر كافة - اعترفوا بالديانات السماوية السابقة على الاسلام ، وهي : اليهودية المنزلة على موسى عليه السلام وكتابها هو التوراة ، ثم المسيحية التي بشر بها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وكتابها الانجيل - تركوا اهالي البلاد المفتوحة على عقيدتهم ، فلم يكرهوهم على تركها لاعتناق الاسلام بدلا منها ، وكان المقابل لذلك جزية زهيدة المقدار يؤديها الذميون لبيت مال المسلمين سنويا في الولاية .

نعم . . لم يعرض العرب (المسلمون) الفاتحون لأهل الديانات السماوية السابقة على الاسلام - يهودا كانوا أو نصارى - بأذى . وانما فقط تعرضوا للديانات الوثنية وأتباعها ، تلك الديانات التي اخترعها البشر من أفكارهم القاصرة ، وحمأة جاهليتهم .

ولهذا يجب أن نتساءل - أمام ظاهرة المد الاسلامي الجارف ببلاد المغرب - هل كان اقبال البربر (أهالي بلاد المغرب) على الاسلام ، منذ زمن مبكر ؟ .

ان رواية ابن خلدون تبين أن اقبال أهل المغرب على الاسلام بدأ منذ وقت مبكر . ولعل هذا القول يعد ردًا قويًا على من يقولون بأن انتشار الاسلام في البلاد المفتوحة رافق

نصل السيف ، الذي كان يحمله المسلم الفاتح . فماذا قال ابن خلدون ؟ . . قال (١) :

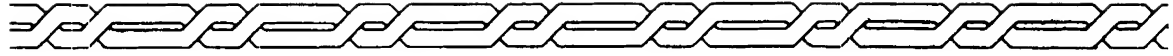
« . . . وانساح المسلمون في البسائط بالغارات ، ووقع بينهم وبين البربر أهل الضواحي زخوف ، وقتل ، وسبي . . . حتى لقد حصل في أسرهم يومئذ من ملوكهم [أي ملوك البربر] وزمار بن صقلاب بن حذر ، وهو يومئذ امير مغراوة وسائر زناته ، ورفعوه إلى عثمان بن عفان ، فأسلم [أي وزمار] على يده ، ومن [أي عثمان بن عفان] عليه ، وأطلقه ، وعقد له على قومه [أي جعله رئيسا عليهم] » .

ومعنى هذا - أن صحّ - أن « وزمار » أسلم منذ الوهلة الاولى ، التي دخل المسلمون فيها البلاد . ويبدو أن ابن خلدون اراد ان يقول أيضا أن قوم « وزمار » تبعوه فيما فعل .

وأيّا كان الأمر ، فإن البلاذري (٢) يؤيد قول ابن خلدون وروايته . فمؤدى كلام البلاذري : أن اسلام أهل بلاد المغرب آنذاك لم يكن بسيطاً ولا عفويًا أو محدودا . بل اقبل عليه منهم نفر غفير ، مما استدعى من المسلمين التنظيم والعناية . فيذكر البلاذري أن « عمرو بن العاص [وكان آنذاك واليا على مصر] أرسل الى عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين [رضي الله عنه] كتابا ، يعلمه أنه قد ولي عقبة بن نافع الفهري ، فبلغ زويلة [ربض او ضاحية المهديّة فيما بعد أيام الدولة الفاطمية بالمغرب ٢٩٦ -

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٤ .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠٨ .



٣٦١ هـ] . وأن من كان يقطن بين زويلة وبرقة أسلم كلهم ، وحسنت طاعتهم . وقد أدى مسلمهم الصدقة [الزكاة] وأقرّ معاهدهم [ذمّهم] بالجزية ، وانه [أي عقبة] قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها [من الخراج] ما رأى أنهم يطيقون ، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء ، فيردّوها على الفقراء ، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل اليه بمصر .

فكيف تيسّر للمسلمين الفاتحين هذا التوفيق كله ؟ وفي ذلك الزمن القياسي والوقت المبكر ؟ . وإذا كان هذا هو مبلغ أقبال أهل البلاد على الاسلام منذ أول الأمر ، فلماذا تأخر تمام اسلامهم قرناً من الزمان ، لدرجة أنه لم يظهر بوضوح الا في خلافة الراشدي الخامس « عمر بن عبد العزيز بن مروان »^(١) ؟ .

وهل نخرج من هذا بأن رواية ابن خلدون غير سليمة أم مشكوكا فيها ، حيث لم يشر أحد من المؤرخين المشاركة ، إلى حادث قدوم « وزمار بن صقلاب » إلى عثمان بن عفان ؟ .

اما عن رواية البلاذري ، فالمعروف ان « عمرو بن العاص » أرسل كتابه الى معاوية بن أبي سفيان - ابان ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر - وليس الى عمر بن الخطاب او في ولاية عمرو الأولى على مصر .

وعمر بن العاص انما كتب كتابه هذا الى معاوية ليحثه على موافاته بالامدادات من الجند والميرة للمساعدة في فتح افريقية ، التي كان عقبة قد ذهب للتمهيد لفتحها وقتذاك . كما أننا لا يسعنا أن نشكك في قيمة ودلالة هذا الكتاب الذي ارسله عمرو بن العاص الى معاوية بن أبي سفيان . لأن الأحداث التي تلت ذلك تدلنا على أن الاسلام لقي من اهل « فزان » و « ودان » ، « أطرابلس » صدوداً واعراضاً^(٢) .

كذلك ، هناك من المصادر ما يشير الى أن اسلام أهل المغرب تم خلال السنوات الخمس التي قضاها عقبة بن نافع ، في تخطيط مدينة القيروان . فابن الأثير والنويري^(٣) اتفقا في القول بأن بعض البربر أسلم ، حين رأى عقبة ابن نافع يخرج الحيات من موضع القيروان . ثم يعود ابن الأثير فيؤكد أن الأقبال على الاسلام زاد بعد بناء مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ . ذلك أن عقبة بن نافع - كان في أثناء عمارة المدينة - يغزو ، « ويرسل السرايا فتغير وتغنم » . وقد دخل كثير من البربر - وقتذاك - في الاسلام ، وامتنعت خطط المسلمين ، وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، وأطمأنوا على المقام ، فثبت الاسلام فيها^(٤) . فهل أسلم كثيرون من أهل هذه النواحي فيما بين سنتي ٥٠ هـ و ٥٥ هـ ؟ ..

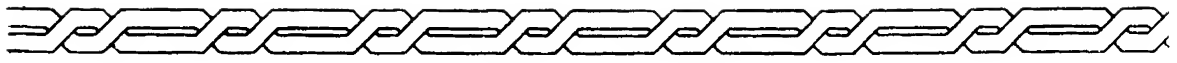
(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ١٨٤ والنويري : نهاية الارب

ج ٢٣ ص ١/٦٨ .

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ١٨٤ .

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٢) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨٣ .



نحن نعرف أن القبائل القاطنة للناحية التي أقيمت فيها « القيروان » أو المحيطة بها هي قبائل : لواته ، نفزاوة ، نفوسة . وأنهم جميعا من البدو أعداء البيزنطيين (الروم) . كما أن تأثير المسيحية في هؤلاء ، أو تأثرهم بها كان ضعيفا جدا ، ان لم يكن معدوما . فهل يكون ذلك مؤيدا ومؤكدا لروايات ابن خلدون والبلاذري وابن الأثير والنويري في اسلام البربر السريع ؟ . بمعنى هل كان عداء هؤلاء البربر البدو للروم وسياستهم ، وكراهيتهم لهم ، فضلا عن عدم تأثرهم بالمسيحية ، سببا من أسباب دخولهم الاسلام^(١) ؟؟؟ .

ومن الجدير بالذكر أن من أكد البلاذري اسلامهم من البربر البدو هم : لواته ونفوسة وهوارة . وهؤلاء كانوا مؤيدين للعرب الفاتحين ، منذ بداية الفتح العربي الاسلامي ، واستمروا كذلك لمدة طويلة . بل ، وكانوا مرشدين وأدلاء للمسلمين الفاتحين ، حيث دلّوهم على مسارب البلاد ومسالكتها . فيذكر ابن عبد الحكم^(٢) ان (حسان ابن النعمان (٧٣ - ٨٦ هـ) وجّه على مقدمته « محمد بن أبي بكر » ، « وهلال بن شروان اللواتي » ، وأنه كان معه جماعة من البربر البتر (البدو) ، وان هناك جماعات اسلامية لم تكن قليلة ، وانما كانت كثيرة نوعا ، فيها بعض زناته وبعض نفوسة وبعض مصمودة^(٣) .

فاذا لاحظنا أن هذه القبائل ، التي بدأت تدخل في الاسلام ، وتميل اليه ، منذ ذلك الوقت

المبكر ، كانت تسكن الجنوب فتدخل فيها « برغواطة » ، « وزناته » ، و « نفوسة » ، صار من اليسير علينا تكوين فكرة عن بدء اسلام بلاد المغرب الفعلي واتجاهه . بحيث أنه يمكن القول أن حركة انتشار الاسلام بدأت عند القبائل الجنوبية الشديدة الشبه بالعرب في حياتهم وعاداتهم ، من حيث ميلهم للرحلة أو الحياة الموزعة بين الظعن والاقامة^(٤) ، ثم امتد الاسلام للشمال تدريجيا .

أي أن حركة المد الاسلامي في أفريقية ، وظاهرة الانضمام للعرب الفاتحين بدأت أول الأمر عند القبائل المتبدية الجنوبية . بينما يبدو أن القبائل المتحضرة نوعا - حسب هذه الروايات - تأخر اسلامها وانضمامها للمسلمين بعض الشيء .

ومما هو جدير بالذكر أن البربر البدو ، الذين كانوا يحيطون بالمراكز البيزنطية المنتشرة على سواحل بلاد المغرب المطلة على البحر المتوسط ، وكانت لهم معها مصالح ، وأن كان أمر هذه المراكز قد ضعف ، بحيث لم يعد العرب يخشون بأسها أو اعراضها عنهم وعن الدين الحنيف ، هؤلاء البدو عندما تم اسلامهم صاروا من خيرة المسلمين .

وبناء على ذلك فإن السير جواتيين ، Goitein « S.D. » أخطأ حين علّق على هذا الموضوع أهمية كبيرة ، وبنى عليه نتائج خطيرة تتصل باسلام أهل بلاد المغرب . وسبب خطئه أنه اعتبر كل من سماهم النسابة « برانس » حضرا ، وكل من سموهم « بتر » بدوا ، وهذا خطأ كبير^(٥) . وقد اعترض على رأي

(٤) حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ٥٣ .

(٥) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ،

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية ص ٦٩ - ٧٢ .

(٣) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص ٢٠١ .



جواتيين المؤرخ المستشرق الفرنسي وليم مارسيسيه «Marçier» ، فضلا عن تناقض اقوال جواتيين مع رواية ابن خلدون وهو مصدر يعتد به ويعول عليه كثيرا في تاريخ بلاد المغرب .

والقول الفصل في تلك القضية ان نفرا من البربر أسلم أثناء اختطاط مدينة « القيروان » ، وأن حركة الدخول في الاسلام استمرت منذ ذلك الحين كالتيار المتدفق . بدليل اسلام « كسيلة بن لمزم » نفسه ، وهو زعيم قبيلة أوربة من البربر البرانس ، بعد ذلك بثمان سنوات تقريبا . وهو لم يعتنق الاسلام بمفرده ، بل تبعه نفر غفير من قومه : من القادة ، والأقارب ، والأتباع ، والأصاغر . وسوف نتبين أهمية هذا الحدث بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة من اسلام كسيلة بن لمزم الأوربي . وذلك حين نرى اهل البلاد يقبلون على الاسلام في قوة وثبات وثقة ، بل ويسيروا مع العرب (الفاتحين) يدا بيد لفتح البلاد . والا فكيف نفسر ظهور شخصية عظيمة مثل « طارق بن زياد » العربي الأب سنة ٩١ هـ ، إلا بأن أباه تزوج من المغرب في مثل هذا الوقت الذي نتحدث عنه . ولعل هذا يؤكد أن حركة الاندماج بين كل من العرب والبربر - بالاسلام والمصاهرة - سارت جنبا الى جنب مع الفتوح التي قصها الرواة^(١) .

بهذا بدأت حركة اسلام البربر مبكرة ، ثم كانت حملات عقبة بن نافع وبسالته ، ثم استشهاده ورفيقه البطل أبو المهاج دينار سنة ٦٣ هـ في موقعة

تهودة^(٢) ، مما شحن نفوس البربر بالاعجاب بالفاتحين ، وفتح قلوبهم للايمان ، وحب التضحية اقتداء بعقبة ورفاقه الذين ينظر اليهم نظرة ملؤها الاعجاب والفخر .

واذا كنا قد لاحظنا أن بعض القبائل هم لنجدة عقبة حين تكاثروا عليه الاعداء ، فمن البديهي القول أن البلاد ، وجدت منذ ذلك الوقت جماعات من المسلمين ، وأن حركة انتشار الاسلام كانت سائرة سيرا مطردا حثيثا بين الأهالي^(٣) .

بهذا يصبح اقبال الناس في بلاد المغرب على الاسلام طبيعيا أمام حسان بن النعمان الغساني (٧٣ - ٨٦ هـ) . لأن كل المقدمات تؤدي الى نفس هذه النتيجة . فهو لاء البربر ، الذين أقبلوا اقبالا ضعيفا - منذ ثلاثين سنة وطوال السنوات الماضية - اشتد اقبالهم عقب استشهاد عقبة بن نافع ، وحين انتصر المسلمون على الكاهنة ودحروا جموعها سنة ٨٢ هـ (٧٠١ م) . ويستقيم بعد ذلك امر افريقية للمسلمين ، ليتقدم المد الاسلامي نحو قرطاجة ، فيطهرها مما فيها من حاميات بيزنطية ، اضطرها زحف المسلمين للفرار كالجرذان المدعورة عبر البحر ، الى القسطنطينية لاتلوي على شيء ، فتسلم المدينة للمسلمين^(٤) .

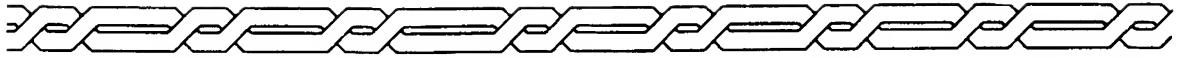
ومما لا جدال فيه أن حسان بن النعمان ، كان بإمكانه توجيه دفعة السياسة الاسلامية في بلاد المغرب

(٤) ذكر البكري أن أهل قرطاجة هربوا بحرا بسفنهم من عند « باب النساء » ، ولم يبق فيها غير « مرناق » صاحب قرطاجة البيزنطي . راجع البكري : فتوح افريقية ص ٣٧ .

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٢) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ص ٧٠ - ٧٤ وابن عذاري : البيان ج ١ ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨٦ .



توجيهها حسناً . فقد وضع من القواعد الادارية والنظم ما يكفل تهيئة جو الاستقرار للمغرب بعد فترة طويلة من الاضطراب والحروب . لكن الظروف والقدر لم يمهل احسان الاقليل . ذلك ان عبد العزيز ابن مروان - عامل مصر لأخيه عبد الملك بن مروان - كان يطمع في المغرب لنفسه ، وكان لا يستريح الى حسان كثيراً ، فلم يزل به حتى عزله سنة ٨٥ هـ ، ليستبدل به مولاة موسى بن نصير^(١) .

واذا كان العرب قد اشركوا اهل بلاد المغرب في الجيش والأعطيات ، وساووهم بهم ، وأشركوهم في قسمة الفياء والغنائم ، فهل يكون غريباً - بعد كل ذلك - أن يشتد ويزداد الاقبال على الاسلام ، بعد أن أيقنوا أن الدخول فيه يعد كسباً روحياً ومعنوياً ومادياً .

يقول ابن عذارى^(٢) - في ختام اعمال موسى بن نصير بأفريقية ، أي بعد عودة موسى الى القيروان - ما يلي : « . . . وفي هذا التاريخ (٨٦ هـ) تم اسلام المغرب الأقصى ، وحول أماكن العبادة - التي كان بناها المشركون - الى القبلة ، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات - (أي المساجد الجامعة التي تقام فيها خطبة الجمعة والعيد) - وفيها (سنة ٨٦ هـ) صنع مسجد « اغمات هيلانة »^(٣) .

والحق أن قول ابن عذارى هنا هام وعظيم جداً . لأن معناه ان طائفة البربر الحضر - المتأثرين بالحضارة اللاتينية والمسيحية - بدأت

تقبل على الاسلام ، وان اسلامها كان صحيحاً ، حتى انهم اقاموا المساجد عندهم . بدليل ان موسى بن نصير ترك عند بربر طنجة سبع عشرة رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن ويفقهونهم في الدين .

ويقال أن أغلب المصامدة كان أقدم أسلم على يد عقبة بن نافع الفهري طوعاً واختياراً ، وان موسى ابن نصير وصل بعد ذلك^(٤) .

وإن دل ذلك على شيء ، فعلى أن عقبة بن نافع أثر تأثيراً قوياً بإسلامه وشخصه في البربر . فاشتد لذلك تعلق اهل أفريقية به - ولكن ليس معنى ذلك أن جميع البربر آنذاك آمنوا بالإسلام عن رغبة واقتناع دون استثناء . إذ لم يخل الأمر من طامع في غنيمة ، أو خائف من الفاتحين ، أو معاد للروم . وكل هؤلاء سارعوا باعلان إسلامهم خدمة لأهدافهم . لكنهم ، على كل حال ، لم يكونوا أبداً كثرة يعتد بها أو يخشى منها .

كما أن إسلام الجميع حسن بعد ذلك ، وبمضي الوقت ، حتى صار البربر لحملة الإسلام وسداه الى وقتنا هذا .

وهؤلاء البربر - سكان بلاد المغرب ابتداءً من برقة حتى طنجة كما يذكر المؤرخون - جنس قوي سليم ، نشأ من مزاج عناصر متوسطية ، كهذه التي تسكن جنوبي أوروبا . فهم - أي البربر - أبناء عمومة الأيبيريش ، الذين سكنوا شبه جزيرة أيبيريا منذ القدم ، واختلطت بهم عناصر أفريقية

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٣٨ .

(٣) ' ابن عذارى : نفس المصدر السابق ج ١ ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ٥٣ - ٥٤ .

(١) حسين مؤنس : ثورات البربر في افريقية والأندلس ص ١
(مقال بمجلة كلية الآداب/ ج . القاهرة ، العدد العاشر ،
المجلد الأول ، مايو ١٩٤٨) .

قبائل غمارة وبرغواطة ، وهما أكبر قبائل زناتة في المغرب الأقصى . ثم أنشأوا الدولة الفاطمية التي كان عمادها قبيلة كتامة الصنهاجية ، ثم دولة بني زيري الصنهاجية في أفريقية - وهي ما يعرف الآن بتونس وشرقي الجزائر - ثم دول المغرب الإسلامية الكبرى كالمرابطين ، فالموحدين ، الفتحصيين ، فبني مرين ، وهي جميعاً دول إسلامية عربية ، لها في التاريخ العالمي نصيب أي نصيب . وهذه الدول المغربية الكبرى هي التي أتمت عملية تعريب المغرب كله ، وأكملت اسلام اهله . كما كان المرابطون اصحاب الجهد الأكبر في دفع الاسلام في اتجاه افريقية المدارية الغربية فيما بعد (٣) .

ومما لا جدال فيه أن الخلفاء في الدولة الإسلامية - دون استثناء - كانوا ينوون بافريقية خيراً . والدليل على ذلك اهتمام الخليفة سليمان بن عبد الملك بأحوال البلاد والعباد فيها . ولا شك أن قرار عزل موسى بن نصير - وهو من هو - كان يستهدف أولاً وآخر استرضاء أهل المغرب ، الذين كان موسى بن نصير (٨٦ - ٩٦ هـ) قد عسف بهم واشتد عليهم ، فجأروا بالشكوى الى الخليفة ، الذي لم يتردد في عزل واليه استرضاء لهم .

ومما يجدر ذكره - انصافاً للرجل وللحق وللتاريخ - أن موسى بن نصير كان رجلاً قديراً نشيطاً ، وقائداً ماهراً ، ومحارباً شجاعاً لا يشق له غبار . اذ قاد المسلمين - في كل من المغرب والاندلس - من نصر الى نصر . لكنه - مع ذلك - لم يكن حذراً ، ولا دقيقاً في تنظيماته الادارية ، كمال

خالصة . فهم في شمال بلادهم وجبالها بيض شقر ، وسكان جبال اصحاء . وهم في جنوبها بدو رعاة سمر الوجوه ، ذوو صلابة وبسالة واحتمال للمشاق . وقد انقسموا - بحسب مساكنهم - الى :
(١) حضري يزراعون الأرض ، ويعيشون مستقرين قرب الساحل ، وعلى سفوح الجبال الخصبة ، ويعرفون باسم البرانس .

(٢) وبدو يرعون قطعانهم من الماشية في الصحارى والبساتط ، ويسمون البتر (١) .

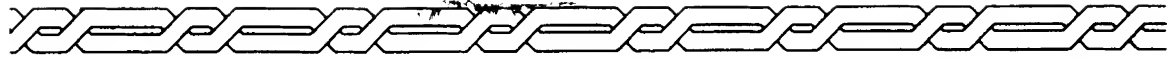
والحق أن البربر أقبلوا على الإسلام ، لأنهم وجدوا فيه نجاة لهم مما تردوا فيه من بؤس وشقاء في ظل الإدارة البيزنطية . ثم أصبحوا في زمن وجيز قصير مسلمين مخلصين لإسلامهم ، وكان أسرهم استعرباً واندرجاً في جماعة الإسلام قبائل البدو منهم ، للسبب الذي ذكرناه قبلاً ، وهو تشابه حياتهم مع الحياة العربية بكل ما فيها . وهم يسمون أحياناً « زناتة » أو « الزناتية » باسم أكبر مجموعات قبائلهم . أما البربر « البرانس » ، فقد تأخر اسلامهم بعض الشيء ، لكنه عندما تم كان شاملاً وعميقاً ، حيث أصبحوا من خيرة المسلمين . وأولئك الحضري يسمون أحياناً بالصنهاجيين ، نسبة إلى أكبر مجموعات قبائلهم وهي صنهاجة (٢) .

وقد فتح الاسلام للبربر جميعاً الأبواب للصعود في مدارج الرقي ، بعد أن استعربوا روحاً وفكراً . فأنشأوا - فيما بعد - الدول الكبرى بادئين بدولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ ، التي حمل عبء اقامتها

(٣) حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ٥٤ - ٥٨ .

(١) حسين مؤنس : عالم الاسلام ص ٥٣ .

(٢) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٨ .



يكن خبيراً بسياسة الشعوب . ولذلك مضى يحارب البربر ويستثيرهم ضده ، بدلاً من أن يتألف قلوبهم ويصانعهم ، كسباً لمودتهم ، الى جانب الدولة الأموية الجديدة عليهم والفاثحين الجدد ، والدين الجديد « الحنيف » . ولذلك ارتاعوا منه ، وشكّوا فيه وامتد شكّهم حيناً الى الحاكم الذي يمثله موسى ابن نصير^(١) .

نعم . . . لقد بذل موسى بن نصير همة كبيرة في جمع الغنائم ، وأسرف في ذلك حتى افزع منه البربر « وتهاربوا من مساكنهم وبلدانهم امامه ، وبذلوا الطاعة عن رهبة »^(٢) . بينما امضى بنوه عبد الله ، وعبد العزيز ومروان وكبار رجاله نحو عشر سنوات في جمع الغنائم والسبي ، حتى قيل أن ما غنموه يضاهي أو يفوق ما غنمه المسلمون في فتح فارس وغيرها من الأقاليم التي تم فتحها في القرن الأول الهجري .

أضف الى ذلك ما كان يضمّره الخليفة سليمان بن عبد الملك تجاه موسى بن نصير من مشاعر أقل ما توصف به أنها لم تكن ودية ، منذ كان سليمان لا يزال في دائرة الظل ، وتصرف موسى معه تصرف الملوك المستبدين بأمرهم ، وليس تصرف العامل المعين من قبل الخلافة . كما غضب سليمان بن عبد الملك بسبب شدة موسى على الناس ، وتقسيمة (أي موسى) نواحي بلاد المغرب والأندلس بين بنيه وذويه^(٣) .

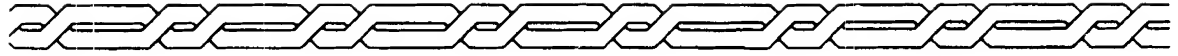
على أن سليمان بن عبد الملك لم يكن هو وحده الذي بذل اهتماماً كبيراً ببلاد المغرب . فالخليفة « يزيد بن عبد الملك » (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م) ، لم ينقم على أهل بلاد المغرب قتلهم الوالي الأموي عليهم أيامه وهو « يزيد ابن أبي مسلم » . بل أنه أقرهم على توليتهم « محمد بن يزيد » بدلاً من الوالي المقتول ، الذي كان قد أعلن لهم عن عزمه أن يسير فيهم بسيرة الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق^(٤) .

فيذكر كل من الطبري وابن الأثير أن يزيد بن أبي مسلم « وضع الجزية على رقابهم ، على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار »^(٥) . وهكذا تشبه يزيد ابن أبي مسلم بالحجاج ، واستبد مع البربر ، وفرض عليهم الجزية ، واستخف بهم ، واشتد عليهم في جمع أموالهم ، وسبي نساءهم ، وأسرف في ذلك حتى أوغر عليه صدورهم .

ويذكر ابن عبد الحكم^(٦) أن يزيد بن أبي مسلم ، قبض على « محمد بن يزيد القرشي » فعذبّه ، وجلده جلداً وجيعاً (أي مؤلماً) ، فاستسقاها (أي طلب محمد بن يزيد القرشي ماء يشرب) فسقاها رماداً ، وكان قد بنى له في السجن بيتاً ضيقاً ، فجعله فيه ، وكساه جبة من الصوف الغليظ وختمها بالرصاص .

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ١٠٣ (ط . القاهرة ١٩٣٩) وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٨٢ .
(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب (تحقيق عبد المنعم عامر) ص ٢٨٨ - ٢٨٩ وراجع السلاوي ، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ج ١ ص ١٠٣ .

(١) حسين مؤنس : ثورات العرب والبربر ص ١ - ٢ .
(٢) ابن عبد الحكم : نفس المصدر السابق ص ٢٠٤ والتويري : نهاية الارب ج ١ ص ٢٢ / ٢٣ .
(٣) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨٩ .
(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٥ ص ٣٨ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٨٨ .



بتعذيب آل موسى بن نصير . والراجح أن ذلك تم في عهد يزيد بن عبد الملك ، عندما اتهم عبد الله بن موسى بقتل يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه ، بيد بشر بن صفوان ، ومصادرة أموال ذويه^(٤) .

على أي حال ، فقد استقرت الأحوال بالمغرب ، في عهد ولاية محمد بن يزيد ، ونعمت البلاد بالاطمئنان والعدل . مما اتاح لمحمد بن يزيد القيام باقرار الأوضاع الداخلية بالمغرب الأقصى ، وبعث السرايا الى ثغور افريقية والجزر المجاورة لها^(٥) .

ومن مظاهر عدل محمد بن يزيد في أهالي بلاد المغرب أنه كان يقسم ما يصيبه من غنائم على جنوده ولا يحتجز لنفسه شيئا منها . فكان بهذا مثالا يحتذى للوالي العادل النزاهة .

والحق أن هذه السياسة الرشيدة الحكيمة التي سار عليها محمد بن يزيد ، كان لها أثرها العميق في كسب أفواج جديدة من البربر الى الاسلام . فلما مات سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ ، استعمل الخليفة ، « عمر بن عبد العزيز » ، تابعيا جليلا وإماما زاهدا هو « اسماعيل بن عبد الله (أو عبيد الله) بن أبي المهاجر دينار » على افريقية سنة ١٠٠ هـ^(٦) .

وزاد ابن الأثير فقال^(١) : أن يزيد بن أبي مسلم « كان ظلوما غشوما ، وكان البربر يحرسونه ، فقام على المنبر خطيبا فقال : أني رأيت أن أرسم أسم حرسى في أيديهم ، كما تصنع ملوك الروم بحرسهم ، فأرسم في يمين الرجل اسمه ، وفي يساره حرس ، ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس ، فاذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت به . فلما سمعوا ذلك منه - أعني حرسه - اتفقوا على قتله ، وقالوا جعلنا بمنزلة النصارى » . وكان معظم هؤلاء الحرس من موالي عبد الله بن موسى بن نصير ، وهم الذين وثبوا عليه ، فقتلوه وهو يصلي ، ولما يمض من ولايته شهر واحد . واختاروا محمد بن يزيد ، وكتبوا بذلك للخليفة يزيد بن عبد الملك ، الذي وافق على ما فعلوه ، قبولاً منه بالأمر الواقع ، كما أنه بدأ يتحرز من البربر عن ذي قبل .

وقد استقر محمد بن يزيد بافريقية واحسن السيرة في أهلها ، وعدل بينهم^(٢) . وكان الخليفة سليمان ابن عبد الملك - حسب رواية ابن عذاري - قد أمره بالقبض على عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه ، ومصادرة أمواله ، وأموال بني موسى بن نصير حتى يؤدوا ثلثمائة ألف دينار^(٣) . لكن هذا الخبر يتناقض مع ما أورده ابن عذاري في موضع آخر ، من أن موسى بن نصير افتدى من سليمان بن عبد الملك بألف دينار . فمن المستبعد أن يكون سليمان قد قام

السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ ص ٢٨٩ ،

تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٥٣ .

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٤٥ .

(٦) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ ص ٢٨٩ -

٢٩٠ .

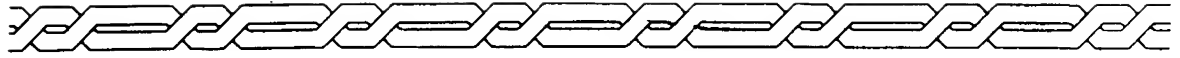
(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٨٢/٤ والسلاوي : نفس

المصدر السابق ج ١ ص ١٠٣ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ٤٤/١ .

(٣) ابن عذاري : المصدر السابق ٤٢/١ - ٤٤ .

(٤) راجع ابن عذاري : نفس المصدر السابق ج ١ ص ٤٢ ،



- (٨) طلق بن حابان الفارسي .
(٩) بكر بن سودة الجذامي (ت ١٢٨ هـ) .
(١٠) اسماعيل بن عبيد الله الأعور (ت ١٣٢ هـ) .

ولقد تولى « اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر دينار » ، توزيع هؤلاء التابعين في بلاد المغرب . فتحول البربر - بفضل الله ثم جهد هؤلاء ، والفقهاء الذين كان قد وزعهم حسان ابن النعمان وموسى بن نصير من قبل في بلاد البربر - الى أمة سلامية قلبا وقالبا . بحيث لم يبق على غير الملة الإسلامية في المغرب سوى جماعة من الروم ، وطائفة من اليهود . ويتفق المؤرخون - قدامى ومحدثين - على أن بربر أفريقيا أسلموا جميعهم في أيام اسماعيل حفيد أبا المهاجر دينار^(٣) .

ويلحق المؤرخ المستشرق الفرنسي جورج مارسيس Marçris على انتقال البربر الى الاسلام بمثل هذه السرعة بقوله : « ففي اقل من قرن واحد اعتنق العدد الأعظم من أبناء أولئك المسيحيين^(٤) الاسلام ، في حماس يجعلهم راغبين في اغتنام الشهادة . وقد تمت النقلة بصورة نهائية في خلال القرنين الأول والثاني الهجريين ، أو القرون الثلاثة التالية ، غير تاركة في بلاد المغرب سوى بقع ضئيلة ، أصبح

والواقع أن اسماعيل هذا كان مصلحا ، من أعظم ولاية بني أمية على بلاد المغرب . فقد ورث عن جده (أبو المهاجر) صفات الحزم والحكمة وحسن التدبير . وكان يجمع - الى جانب كياسته وحكمته - ورعا وتقوى . ولذلك تفانى في نشر الاسلام بين قبائل البربر ، وبذل كل جهده في سبيل تعليم البربر وتثقيفهم بالثقافة الإسلامية^(١) .

ويذكر المؤرخون أن الخليفة « الراشدي الخامس » عمر بن عبد العزيز ، بعث مع اسماعيل ابن عبد الله هذا ، عشرة من التابعين أهل علم وفقه وفضل ودين ، وأمرهم بأن يبذلوا جهدهم لتفقيه البربر في علوم الدين ، حتى يقوم اسلامهم على أساس متين . وهؤلاء التابعون هم^(٢) :

(١) ابو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري (ت ١٠٠ هـ) .

(٢) ابو مسعود سعيد بن مسعود التجيبي .

(٣) اسماعيل بن عبيد الأنصاري المعروف « بتاجر الله » (ت ١٠٧ هـ) .

(٤) ابو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي (ت ١١٣ هـ) .

(٥) ابو سعيد جعثل بن عاهان بن عمير الرعيني الغساني (ت حول ١١٥ هـ) .

(٦) حيان بن أبي جبلة القرشي (ت ١٢٥ هـ) .

(٧) موهب بن جني المعافري .

(٣) راجع ابن عذارى : البيان ١ / ٤٥ . وابن خلدون .
العبر ٦ / ٢٢٠ ، وعبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ ص ٢٩٠ - ٢٩٢ .
(٤) يقصد نصارى البربر ، وكانوا يكونون غالبية البربر .

(١) ابن عذارى : ج ١ ص ٤٥ .
(٢) راجع المالكي : رياض النفوس (لمؤلفه أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله ، تحقيق حسين مؤنس ؛ القاهرة ١٩٥١ م) ، ص ٦٤ - ٦٥ ، أرنولد : الدعوة الى الإسلام ترجمة حسن ابراهيم وآخرين ص ٣٥١ .



القول أن بعض عمال الدولة هم الذين أساءوا السيرة فتغالوا في الاستبداد والسيطرة ، ظنا منهم أن مسلكهم هذا سيرضي عنهم الخلفاء (أمراء المؤمنين) ، معتقدين - خطأ - أن الحذر الشديد والشدة المفرطة بالناس مظهر للولاء التام للدولة ولأمير المؤمنين . وعلى كل فقد نال كل من انحرف عن خط العدل وحسن السيرة جزاءه وفقا .

وابن عذاري يروي لنا قصة ينتقد فيها سياسة « عبد الله بن الجحباب » في أهل افريقية ، فيقول - يؤيده ابن الأثير^(٣) - « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طوائف المغرب ، ويعيئون فيها (أي في طلبها) إلى عامل افريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسييات . فلما افضى الأمر إلى ابن الجحباب مناهم بالكثير ، وتكلف لهم (حمل نفسه أو كلفها أكثر مما كان ينبغي) ، فأضطر إلى التعسف وسوء السيرة » .

لكن ليس معنى رغبة الخلفاء في لطائف المغرب ، انهم يريدون الاكثار منها بالعسف والبطش ، وانما فقط « يستحبونها » أي يستملحونها ويستحسنوها^(٤) . وليس يرضي الخلفاء أبدا أن يشتد عمالهم على الرعية فيظلمونهم ، في سبيل تلبية رغباتهم . بل أنهم كثيراً ما رفضوا قبول أموال أرسلت اليهم حين

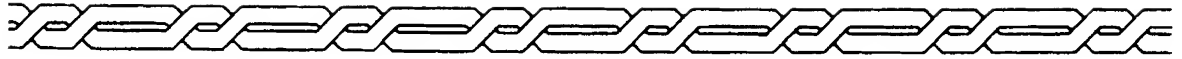
حتى مجرد الاعتقاد في وجودها امرا مشكوكا فيه . وبينما كانت معظم البلاد التي انتشر فيها الاسلام تحتفظ بطوائف مسيحية ، كانت لها مكانة مرموقة في الدولة في بعض الأحيان كالشأن مع سكان جبل لبنان في بلاد الشام ، والأقباط [يقصد النصارى] في مصر ، والمعاهدة المستعربين في الأندلس ، الذين كانوا يعيشون جميعا ، جنباً إلى جنب مع ساداتهم المسلمين ، فان وطن سان أوغسطين لم يعرف لذلك نظيراً^(١) .

لقد نتج عن انتقال البربر إلى الاسلام ، انتشار اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - في بلاد المغرب . ويذكر الأستاذ عثمان الكعاك^(٢) أن الفتح الاسلامي للمغرب يمتاز عن غيره من الفتوح السابقة ، بأنه فتح ثقافي . ولم لا وقد حمل الفاتحون معهم اللغة والدين ممثلين في القرآن الكريم « الذي هو قوام دين ، ودستور سياسة ، ويحر أخلاق ، وقاموس لغة ، وديوان ثقافة » . لذلك بُني الفتح الاسلامي على الثقافة والعلم والمعرفة والنور في يوم الفتح نفسه .

لهذا لا يجب قبول القول بأن المسلمين أساءوا السيرة في بلاد المغرب ، أو أن غرض الحكم الاسلامي هناك إنما كان الاستبداد والعسف بالبربر . بل من الحق والانصاف

سالم : المغرب الكبير ج ٢ ص ٢٩١ - ٢٩٢ .
(٣) ابن عذاري : البيان ١/٣٩ و ٥١ وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٢١٩ .
(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٠٤ وج ٦ ص ٢٢١ .

Marçais, G.: Le Berberie Musulmane et l'Orient au (١) Moyen Age. (Paris, 1946), P. 36.
(٢) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ص ١٢ ط .
معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٨ م . والسيد عبد العزيز



تبنوا ظلم العمال وأستبدادهم بأهل نواحيهم .

والحق أن البربر أنفسهم لم يشكوا في نية الخلافة تجاههم ، وكانوا دائما يأملون منها خيراً . ولذلك كان سخط الأهالي دائماً على العمال ، ولم يتعداهم الى الخلفاء . وكان الأهالي يرددون دائماً « لا نخالف الأئمة (أي الخلفاء) بما تجني العمال »^(١) .

لقد كانت سياسة الدولة الاسلامية ، في البلاد المفتوحة ، عظيمة الأثر في تلك البلاد . اذ حطمت الحواجز المصطنعة ، التي كان قد فرضها البيزنطيون من قبل في بلاد المغرب ، بين سكان البلاد في المناطق الساحلية والمناطق الداخلية . وقد أدى ذلك الى نهوض الشعب المغربي وأخذ به بأسباب الحضارة الاسلامية . بحيث لم تعد تلك البلاد شريطا يسكنه جماعة من المستعربين المتحضرين ، وإنما صارت بلادا واحدة يسكنها شعب قوي متحضر . ولم يكن ذلك ليتم لولا السياسة التي سارت عليها الدولة الاسلامية ورعتها ، وأوصت عمالها بتنفيذها في تلك الأنحاء ، مما ترتب عليه نتائج عميقة الأثر في تاريخ وحضارة تلك البلاد .

ولعل أهم النتائج جميعها تمثلت في أنتشار الاسلام في بلاد المغرب ، بأسرع مما انتشر في غيرها من بلدان . فقد كان المد الاسلامي في هذه البلاد أكثر نجاحا ورسوخا ، وأسرع سيرا ، وأعمق أثرا . فكان انتشاره بها مثلاً

أسرع من انتشاره في مصر ، على الرغم من سهولة فتح الأخيرة وقصر المدة التي استغرقتها الفتح . على أنه ما يكاد القرن الثاني الهجري يؤذن بالانتهاء ، حتى كان الاسلام قد رسخت اقدامه في بلاد المغرب . فأصبح الغالبية العظمى من المغاربة مسلمين ، واندجوا في الحياة الاسلامية ، كما اكتسبت ثقافتهم الصبغة العربية الاسلامية الواضحة . وربما يكون ذلك راجعا الى ظروف البلاد نفسها . وإلى طبيعة الديانة المسيحية فيها . كما يعود كذلك الى طبيعة البلاد ، وطبيعة أهلها ، ثم إلى سياسة الدولة الأموية ، التي أتمت الفتح الاسلامي في هذه البلاد ، وأدخلتها في نطاق الاسلام .

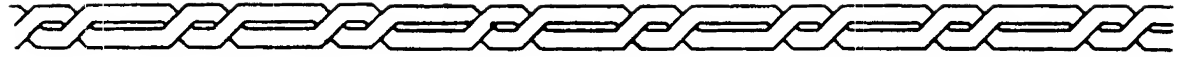
ويوضح السير توماس أرنولد السبب الذي دفع البربر الى الاسلام ، نافيا أن يكون المسلمين قد اضطهدوا أهل البلاد المفتوحة دينياً ، فيقول^(٢) : « ... أما ما يتعلق باضطهاد ديني حدث فعلا ، فأن المؤرخين لم يذكروا عنه إلا شيئاً قليلاً . كما أن بقاء الكنيسة المسيحية الوطنية (المغربية الافريقية) بعد الفتح الاسلامي أكثر من ثمانية قرون ، لشاهد على روح التسامح ، التي استطاعت وحدنا أن تجعل مثل هذا البقاء ممكناً » .

إذن ما هي الأسباب التي أدت الى تدهور المسيحية في بلاد المغرب ؟ .

من المعلوم أن عدد الأهالي المسيحيين بتلك البلاد - في نهاية القرن السابع

(١) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٩ - ٤٠ و ٥٣ .

(٢) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٤٣ - ١٥٣ .



الرومانية ، وانعقد مجمع قرطاجنة ، لم يحضره سوى نحو ٢١٧ أسقفا ، بعد أن كانت الكنيسة الافريقية من أغنى الكنائس بالأساقفة والقسيسين^(٣) .

ولم تكد الكنيسة الافريقية ، تتخلص من نير الوندال، حتى ذقت الويل من القبائل المغربية.

حتى اذا أهل القرن السابع الميلادي ، وبدأ الزحف الاسلامي ، كانت المسيحية في حالة متناهية من الضعف والتهالك ، سواء في العدد أو في النفوس . ولذلك لم تستطع أن تصمد في وجه المد الاسلامي الظافر ، على عكس ما كان عليه حال الكنيسة القبطية في مصر . فالكنيسة في مصر احتفظت برمقها ، بينما نجد كنيسة افريقية - رغم تسامح المسلمين تتلاشى تدريجياً . بحيث لم يمثل الكنيسة الافريقية في سنة ١٠٥٣ م سوى خمسة اساقفة . ثم يتزايد ضعفها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، بحيث لم يعد باقياً من ذكراها ونفوذها سوى أطلال كنائس منتشرة في هذا السهل الفسيح^(٤) .

وما دام المغاربة كان اقبالهم على المسيحية على هذا النحو الضئيل ، فمن الطبيعي أنهم لم يناضلوا من أجلها ، كما لم تستطع عقائدهم البدائية ، أن تقف موقف المنافس للدين

الميلادي ، كان لا بد أن يكون قليلاً جداً . وهذه حالة تجعل استمرار بقائهم في ظل الحكم الاسلامي أقوى دليل على انعدام وسائل العنف والاكراه في التحول الى الاسلام . كما أن هذه الحالة تجعل مثل هذا الزعم واهياً لا ينال شيئاً من القبول ، بالنسبة الى ما كانت تكون عليه لو أن العرب وجدوا هناك (في المغرب) كنيسة قوية مزدهرة ، عندما بدأوا فتح بلاد الشمال الافريقي^(١) . فاذا كان هذا هو حال برقة وطرابلس وتونس والجزائر . فما بالنا بالمغرب الأقصى ، بشعابه وهضابه وطبيعته المعتقد . لقد كانت الكثرة الغالبة من أهل هذه المناطق الداخلية على الوثنية ، وكذلك شأن غالبية شعوب المغرب وقبائله^(٢) .

فهذه المسيحية المحدودة الانتشار في المغرب كان سلطانها قد ضعف بالتدريج ، في أغلب المناطق التي كانت قد استقرت بها . ففي برقة مثلاً ، كادت أن تتلاشى قبيل الفتح الاسلامي . وقد نال من كنيسة افريقية ما لقيته في ظل الوندال الآريين ، قرابة قرن من الزمان ، تعرضت خلاله للاضطهاد العنيف ، والتشريد لأساقفتها ، وحرّم عليهم الجهر باقامة شعائر الدين المسيحي وطقوسهم الكنسية . وقد أمعن الوندال في تعذيب من يأبى الدخول في مذهبهم . فلما عادت بلاد المغرب للدولة

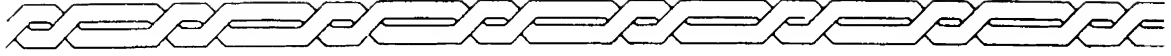
(٣) أرنولد : المرجع السابق ص ١٤٥ و ١٤٦ وصابر دياب : المرجع السابق ص ٦٧/٦٦ .

(٤) Gibbon, E. The Hist. of Decline & Fall of the Roman Empire (London, 1881), P. 115, 214, 331-333.

(١) صابر دياب : محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٦٦ (محاضرات غير منشورة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة فرع

الخرطوم) . وأرنولد : المرجع السابق ص ١٤٤ .

(٢) صابر دياب : المرجع السابق ص ٦٦ .



الاسلامي . بل ما حدث كان العكس ، اذ دخل في الاسلام من كان قد دخل المسيحية . وهكذا كان ضعف المسيحية على هذا النحو ، ثم قلة مقاومتها ، مما يسّر للاسلام أن ينتشر ويتمكن من أن يعم البلاد كلها^(١) .

لكن ، لا يجب اغفال حقيقة هامة ، تفسر الانتشار السريع للاسلام في بلاد المغرب ، أبلغ من ضعف المسيحية نفسها . هذه الحقيقة هي أن أهل البلاد الأصليين كانوا - كما أوضحنا قبل - فريقين : فريق ينزل السهل الساحلي الواقع بين البحر والجبال ، ثم ينتثر على طول الجبال الممتدة من الشرق والغرب ، في السفوح المزروعة والنواحي الخصبة ، المحيطة بجبال أوراس ، ثم يعمنون انتشارا حتى مدينة طنجة ، وهو فريق البرانس^(٢) .

أما في جنوب البلاد - حيث نشاهد سلسلة من الوديان العالية ، والهضاب المرتفعة ، والبيئات الرعوية أو شبه الرعوية ، الممتدة امتدادا متصلا من طرابلس الى المغرب الاقصى - فقد استقرت طائفة بين القبائل البدوية الكبرى ، وهذا الفريق من سكان المغرب يسمى البتر . وهؤلاء كانوا أكثر عداءاً للروم ، وأشد تمسكا بديانتهم الوثنية القديمة^(٣) .

اذن ، هؤلاء الناس رأوا الفتح الاسلامي يقرر مصير المغرب ، فألقوا بثقلهم معه ،

وأيدوه من أول الأمر . بل كانوا عدة العرب في زحفهم ، وطلية جند الاسلام في فتح باقي المغرب ثم الأندلس . حيث دلّوهم على عوِّرات البلاد . وأعانوهم في نضالهم ضد الروم . وكانت أشهر القبائل التي أيدت الفتح الاسلامي قبيلة : لواته ، ونفزاوة ، ونفوسة ، وزناته^(٤) .

وما دام هؤلاء القوم قد أيدوا الفتح الاسلامي ، منذ البداية ، فقد كانوا - نتيجة لموقفهم هذا - أسرع استجابة للاسلام ، ودخولا فيه . وقد بدأ الاسلام ينتشر أول ما ينتشر ، بين هذه القبائل من البربر ، تدفعهم اليه عداوتهم للروم . ولم تستطع عقيدتهم الوثنية الصمود أمام الديانة الاسلامية الحنيفة ، الوافدة في قوة وعنقوان . فلما إنهارت المقاومة البيزنطية ، وانبسط النفوذ الاسلامي العربي في بسائط البلاد كلها ، لم يشأ الفريق الآخر من أهل المغرب ، أن يتخلف عن الركب ، فبدأوا بدورهم يدخلون في الاسلام أسوة بمن دخل فيه من البدو^(٥) .

كما أن هناك أسباب أخرى تفسر سرعة انتشار الاسلام في بلاد المغرب ، وسرعة تقبل الناس له . من هذه الأسباب أن العرب اتخذوا سياسة كانت بعيدة الأثر في انتشار الاسلام ، وأقبال المغرب عليه . فحسان بن النعمان - فاتح افريقية - منح البربر ، الذين أيدوا الفتح

(١) صابر دياب : محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس .

(٢) صابر دياب : المرجع السابق ص ٦٧ .

(٣) صابر دياب : المرجع السابق ص ٦٧/٦٨ .

(٤) صابر دياب : المرجع السابق ص ٦٨ .

(٥) صابر دياب : محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٦٨ .



الاسلامي وآزروه ، حق المساواة الكاملة مع الفاتحين ، أو بمعنى آخر منحهم حق « الرعوية العربية الاسلامية » كاملة .

هكذا صار واضحاً أمام البربر ما ينطوي عليه اعتناق الاسلام من التمتع بحقوق المساواة مع الفاتحين ، فضلاً عن مكاسب معنوية ومادية . ولهذا سيصبح أهل المغرب هم عدة العرب في زحفهم المقبل صوب المغرب الأقصى ، مع ما يتضح لهم - في هذا الزحف - من مغنم ومكاسب مادية . وتتضح سياسة حسان بن النعمان من رواية المالكي وهي « تهدف الى اشراك البربر في جيش الفتح » . ومعنى هذا منحهم حقهم المشروع من العطاء . ثم اذا به يسوي بين العرب والبربر في قسمة فيء الحرب ، وغنائمها . بمعنى أنه لم يعتبر العرب حاكمين ، والبربر محكومين ، وإنما ساوى بين الجميع في الحقوق والواجبات ، والاشترك في الحرب^(١) .

ومن المؤكد أن هذا الوضع الجديد ، لم يكن مما ألفوه من سياسة الروم ، حيث كان أهل بلاد المغرب - مهما بلغت ثقافتهم ومكانتهم - من موالى الروم ، لهم المرتبة الثانية في المجتمع . فاذا بهم اليوم يظفرون بالمساواة الكاملة والثامة . بل أمعن حسان بن النعمان في سياسة التودد والترضي هذه ، فأعتبر أرض المغرب « مفتوحة صلحاً لا عنوة » ، وأقر البربر على ما بيدهم . وهذه كلها أمور لها ما بعدها .

كذلك أدرك البربر أن مخالفة العرب لن تفقد البربر أرضهم ولا ميزاتهم المادية والمعنوية ، مما كان له الأثر النفسي القوي والبعيد المدى في اقبال البربر على الاسلام . ذلك أنه ميز البربر على سائر أهالي بلاد المغرب . فأعتبر الأفارقة والروم من موالى العرب ، لا يتساوون مع البربر ، حتى ولو أسلموا^(٢) . بينما اعتبر المسلمون الأرض التي كانت بيد الروم « مفتوحة عنوة » ، فاستحلها العرب واعتبروا أهلها ومن وجدوه عليها موالى لهم ، يتصرفون في شئونهم كما يريدون .

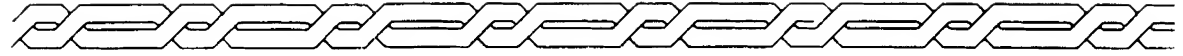
وهكذا وجد البربر - الذين استعبدوا بالأمس - أنفسهم أرفع شأنًا من سادة الأمس الأفارقة والروم . وكانت النتيجة الملموسة لهذه السياسة هي اختفاء العنصر الرومي اللاتيني من البلاد تدريجياً ، حتى انمحت آثارهم من البلاد تقريباً . واختفت - تبعاً لذلك - اللغات اليونانية واللاتينية والفينيقية ، التي كان يستعملها هؤلاء الروم والأفارقة . وقد أدت هذه السياسة الى نهوض الشعب المغربي وأخذ به أسباب الحضارة الاسلامية^(٣) .

فلما جاء موسى بن نصير - عاملاً على ولاية افريقية - تابع سياسة حسان في تلك البلاد . وبذلك لم يكن موسى بن نصير قائداً فحسب بل كان مصلحاً وسياسياً في نفس الوقت . فنجده في بداية عهد ولايته لافريقية ، يقرب اليه البربر ، ويحببهم في الحكومة الجديدة ، ويسولهم

(٣) صابر دياب : المرجع السابق ص ٦٩ .

(١) صابر دياب : المرجع السابق ص ٦٨ .

(٢) صابر دياب : المرجع السابق ص ٦٨ / ٦٩ .



الأعمال ، ويشركهم مع العرب في ادارة البلاد . فوجد البربر أن انضمامهم للعرب ، ومحالفتهم لهم ، يتمخض عن مكاسب معنوية ومادية جمّة . ولذلك بدأوا يقبلون على الاسلام اقبالا عظيماً ، لم يؤثر فيه ما بدر من موسى بن نصير - بعد ذلك - من شدة وعسف بأهالي البلاد في سبيل استرضاء الخلافة^(١) .

وقد سارت حركة انتشار الاسلام - ابان ولاية موسى بن نصير - جنباً الى جنب مع حركة الفتح الاسلامي . وقد رغب موسى بن نصير ألا يكون اسلام البربر خوفاً ورهبة ، بل عن رغبة واقتناع . لذلك نجده - رغم شدته في حكمه - يسعى الى تفقيهم في الدين ، وترغيبهم فيه . فينشئ المساجد في المناطق التي فتحها ، حتى لقد أنشأ مسجد « أغمات هيلانة » ، في أقصى بلاد المغرب^(٢) .

وأيا كان الرأي في تقييم سياسة موسى بن نصير - وهو ما تعرضنا لجانب منه قبلاً - فإن خطته في المغرب نجحت نجاحاً باهراً وبعيد الأثر ، بحيث أصبح المغرب الأقصى - بشعوبه وقبائله - طوعاً وقيماً . ولولا تنكبه طريق الاعتدال بالناس ، لما انتهى أمره الى ما انتهى اليه . إلا أن لكل شيء سبباً . ومثل أمر شخص عظيم كموسى بن نصير لا يعدم أن يكون له ألف سبب وسبب ، وهي كلها ، تتكالب لأبعاده وأهمها : حفيظة سليمان بن عبد الملك الناقمة عليه ، فضلاً عن

حسد دفين تملك نفس بعض أنداد وزملاء « موسى بن نصير » في المغرب ، ممن كانوا يطمحون الى تولي ما تولي موسى من أعمال ومهام ، ومنهم مغيث الرومي^(٣) .

واذا كانت حركة الفتح الاسلامي لشبه جزيرة ايبيريا (الأندلس) ، عظيمة الأثر في تثبيت اسلام البربر ، اذ كان هذا النصر المذهل السريع ، الذي حققه المسلمون ، حافزاً لمن تخلف من البربر المسلمين ، الى عبور بحر الزقاق (مضيق جبل طارق فيما بعد) للمساهمة في الفتح ، ونيل شرف الجهاد في سبيل الله استهدافاً لأعزاز دينه والاستشهاد في سبيله لو تطلب الأمر . فقد كانت أيضاً حركة الفتح الاسلامي للأندلس دافعا قويا لمن بقي على دينه للدخول في الاسلام ، ليتاح له فرصة الاسهام في هذا الشرف العظيم ، وينالوا شرف الانضمام الى هؤلاء الليوث الضراغم في ساحة الوغى . فكان ذلك مما عجّل باسلام البربر ، الذين حاربوا مع العرب جنباً الى جنب ، واحتكوا بهم ، وخالطوهم ، وأفادوا منهم في الدين والثقافة العربية .

ولم ينفرد الولاة بالاهتمام بامور بلاد المغرب على هذا النحو وحدهم ، بل شاركهم الخلفاء اهتمامهم . فكان هذا الاهتمام متمماً لأعمال الولاة ، ودافعا لحركة انتشار الاسلام الى الامام ، وبخاصة خليفة مثل عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧٢٠ م)^(٤) ، الذي كان

الكبير ج ٢ ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٤) حسن ابراهيم : الاسلام السياسي ج ١ ص ٣٢٩ وأرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٤٦٦/٣٥٩ .

(١) صابر دياب : المرجع السابق ص ٦٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٣٩ .

(٣) راجع : ابن عذارى : المصدر السابق + عبد العزيز سالم : المغرب



الى بلادهم لمتابعة الرسالة ، ليتولوا وظائف
الامامة والقضاء ، ويعملوا بدورهم على نشر
الاسلام والثقافة العربية^(٣) .

وعليه يمكن القول - باطمئنان - أن القرن
الثاني الهجري ، أظل بلاد المغرب ، وقد
أضحت قطرا اسلاميا ، يفعل مع التفكير
الاسلامي ، الذي ساد في العصر الاموي .
واذا بالفرق الدينية التي ظهرت في ذلك
العصر - مثل : الشيعة أو الخوارج - تتقل هي
الأخرى الى بلاد المغرب ، بفرار بعض الدعاة ،
حيث تصادف دعايتهم أرضاً خصباً ، وصدى طيباً
بين قبائل البربر . فكان ظهور حركات الخوارج
سريعاً في بلاد المغرب ، وأندلعت نيران
حركاتهم في سنة ١٢٢ هـ . وهذا الوضع أن دل
على شيء ، فعلى أن البربر تفاعلوا تفاعلاً كاملاً
مع الحياة الاسلامية بكل جوانبها^(٤) .

كما شهد هذا العصر نفسه - القرن الثاني
الهجري - تطورا مماثلا صحب انتشار
الاسلام ، ونعني به انتشار اللغة العربية .
ويخيل للمتأمل أن اللغة العربية كانت أوسع
انتشارا في بلاد المغرب منها في مصر . لأن
اللغة العربية وجدت في مصر لغات قديمة
عريقة كاللغة القبطية (المصرية) بتقاليدها
العريقة وماضيها السحيق . وهذه اللغة -
(المصرية القبطية) - هي لغة الثقافة والكنيسة

يريد أن يعم نور الاسلام جنبات الكون كله ، وأن
تعمر به قلوب الناس وتضاء بصائرهم بهداه^(١) .

ولتحقيق هذا الهدف نراه يولي « اسماعيل
ابن عبيد الله » (أو عبد الله) ابن أبي المهاجر
دينار « بلاد المغرب سنة ١٠٠ هـ . ليدعو من
بقي من البربر الى دين الاسلام . ولهذا لم
يكن اسماعيل بن عبد الله عاملاً على بلاد
المغرب فحسب ، بل كان داعية الى الاسلام :
بالحكمة والموعظة الحسنة ، والحجة
والاقناع ، والنموذج الحسن أو القدوة الطيبة .
ولذلك يرجع اليه المؤرخون الفضل ، في
اتمام ما بدأه أسلافه من جهود لنشر الاسلام ،
حيث قام هو بثبيت العقيدة في نفوس من أسلم
من البربر^(٢) .

لقد أتبع عمر بن عبد العزيز هذا - تعيين
اسماعيل بن عبيد الله - بارسال التابعين الذين
انتشروا بين البربر ، وأخذوا يعلمونهم أصول
الدين ، ويبصرون الناس بما فيه من قواعد
وأحكام . وأقام كثيرون منهم في مدينة
القيروان ، وغيرها من المدن المغربية ، فأقاموا
بها المساجد وجعلوها مدارس للاسلام ،
يقصدها البربر من كافة الأقاليم . وقد أخذ عن
هؤلاء التابعين كثيرون من أهل البلاد . فاذا
تعلم فريق من أهل البلاد الأصليين ، وقضوا
بعض الوقت في الدراسة في القيروان ، عادوا

وصابر دياب : المرجع السابق ص ٦٩ - ٧٠ .

وحسن ابراهيم : المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٩ .

(٣) صابر دياب : المرجع السابق ص ٧٠ .

(٤) صابر دياب : المرجع السابق ص ٧٠ .

(١) أرنولد : المرجع السابق ص ٤٦٦ ، حسن ابراهيم : المرجع

السابق ج ١ ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٢) أرنولد : المرجع السابق ص ٣٥١ نقلاً عن

Fournel : Les Berberies , P . 270 .



الأول من أهل البلاد الأصليين الذين برعوا في ثقافة العرب ، وفهموها حق الفهم .

والحق ، أنه كان من الطبيعي أن يحرص البربر ، الذين دخلوا في الاسلام ، على تعلم اللغة العربية . وذلك لدراسة ما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات خاصة بالعبادات والأحكام والمعاملات وهي أمور ضرورية لكل مسلم ومسلمة ، سواء في الحياة العامة أو الخاصة .

لكن انتشار اللغة العربية - التي حلت محل اللاتينية - لم يقض على اللغة البربرية أو لهجات البربر ، التي كانت منتشرة بوجه خاص في أطراف المغرب ، والمناطق الجبلية الرعوية . غير أن لغة ولهجة البربر لم تكن سوى وسيلة التعبير الشفوي عند البدو ، ولم تكن أبدا لغة حضارة كاللغة العربية^(٣) . والحق أن المساجد التي أسسها المسلمون - سواء كانوا فاتحين أو علماء دين - كانت بمثابة مراكز علمية ، ومدارس للتعليم العلمي الديني والدنيوي ، قبل أن يعرف العالم الجامعات والمدارس^(٤) .

كذلك ، ففي نفس الوقت الذي انتشر فيه الاسلام واللغة العربية ، كانت الثقافة العربية - الوافدة الى مدارس القيروان ، وغيرها من مدارس افريقية - تسير في طريقها المرسوم نحو التفوق والازدهار^(٥) .

المصرية ، والتمسك بها يحمل - في المفهوم المصري - معنى دينيا ووطنيا ، هذا الى جانب اللغة الاغريقية (اليونانية) ، لغة الوثائق والمصطلح الديواني والثقافة الاغريقية .

أما في بلاد المغرب ، فلم تكن أيّا من الاغريقية أو اللاتينية واسعة الانتشار ، وإنما كانت لغة الحكومة ، ولغة سكان السواحل . أما غالبية البربر ، فكانت أبعد من أن تتأثر بهذه اللغة ، ما دامت قد بقيت بعيدة عن التأثير الحضاري الروماني ولم تكن لغات البربر ، أو لهجاتهم ، غير المكتوبة تستطيع مغالبة اللغة العربية^(١) .

وكما أقبل البربر على الاسلام ، كذلك أقبلوا على اللغة العربية ، التي وجدوا فيها أداة طيعة تمكّنهم من التفاهم فيما بينهم . خاصة وقد تعددت فيهم اللهجات ، وكانت العربية هي اللغة المكتوبة ، التي يستطيعون عن طريقها تسجيل تراثهم . وكان اقبالهم على اللغة العربية عظيما . يدلنا على ذلك ما ترويه كتب الطبقات ، من رحيل الكثيرين منهم - في القرن الثاني الهجري - الى الشرق الإسلامي للاستزادة من العلم ، والتثبت من اللغة العربية^(٢) .

وقد ظهرت ، خلال القرن الثاني الهجري ، فئات من الناس تكتب بالعربية ، بل وتؤلف بها . ويدراسة ما ورد من تراجم في كتب فقهاء المغرب ، نجد الرواية تتسلسل الى الرعيل

(٤) ابن عذاري : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٧ والسيد عبد العزيز

سالم : المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢٩٢/٢٩٣ .

(٥) صابر دياب : المرجع السابق ص ٧٠ - ٧١ .

(١) صابر دياب : المرجع السابق ص ٧٠ .

(٢) صابر دياب : المرجع السابق ص ٧٠ - ٧١ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢٩٢ .



بل أن الغيظ من انجذاب المسيحيين نحو الاسلام ، نتيجة تسامح المسلمين وحسن معاملتهم لرعاياهم الذميين ، جعل بعض الحاقدين - وهم نفر من القساوسة في قرطبة ورهبانها - يحاولون ارغام المسلمين على الخروج عن تسامحهم . وذلك باهانة الاسلام ، ونبي الاسلام ومقدسات الاسلام ، علنا في الشوارع ، لكي يقتادهم رجال الشرط (الشرطة) الى القضاء ، فيحاكموا ، فيظهروا كمضطهدين دينيين . ولكن النتيجة كانت عكسية تماماً . اذ أمعن قضاة المسلمين في التسامح معهم ، محاولين استتابتهم حقناً لدمائهم ، فظن أولئك المتعصبون أن هذه فرصة جديدة ، أتاحت لهم ، ليظهروا بمظهر الابطال ، فتمسكوا بالعداء للاسلام واهانة مقدساته . مما اضطر معه القضاة للحكم عليهم بالموت . ومن هؤلاء الراهب القرطبي يولوج (EOLOGIO) وصاحبته « فلورا » (FLORA) ، اللذان انتهى امرهما بالقتل عدلاً ، بسيف الشرع . فكانا وأمثالهما ، ممن أدكى موتهم غصبة النصارى على الاسلام ودولته في الأندلس . وسرعان ما سيتضح هذا الغضب ليكون تياراً معادياً ، ينفر النصارى من الاسلام وأهله .

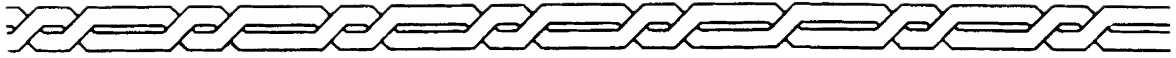
لكن هذا التيار فشل ، وأصدر مجمع طليطلة الديني المسيحي قراراً سقّه فيه آراء

ومما لا شك فيه أن مبدأ الحرية ، الذي قرره القرآن الكريم ، في أكثر من موضع ، ونص عليه دستور الجماعة الاسلامية نصاً صريحاً ، وجرى عليه محمد رسول الله ﷺ ، في تسيير امور الجماعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، كان له أكبر الأثر في انتشار الاسلام فيما بعد تصحبه اللغة العربية لغة القرآن . لأن الاسلام ظهر في عصر مليء بالاضطهادات الدينية ، والمحاولات العنيفة من جانب الدولة البيزنطية وأصحاب المذاهب المسيحية لارغام الناس على الدخول في دينهم أو مذهبهم^(١) .

فلما جاء العرب (المسلمون الفاتحون) ودخلوا ما دخلوه من بلدان تحت راية الاسلام ، ولم يفعلوا أكثر من عرض الاسلام على الناس ، وتبصيرهم بفضائله ، ثم تركوهم بعد ذلك أحراراً في اعتناقه اذا شاءوا ، كان هذا الموقف بلا شك ، مثار اعجاب ودهشة ، في وقت واحد ، من جانب أهالي البلاد المفتوحة شرقاً أو غرباً . ولذلك تاقت نفوسهم للاسلام ، ووقع في روع الكثيرين - وهذا حق - أنه ميزة ، وإلا لما ضنّ به العرب على غيرهم في رأيهم . وهذه الفكرة واضحة في كتابات المسيحيين ، الذين رحبوا بالمسلمين وحكمهم مثل « يوحنا النقيوسي » في مصر مثلاً ، كما هي واضحة في كتابات المسيحيين ، الذين كرهوا المسلمين والاسلام مثل يوحنا الدمشقي^(٢) .

ومما هو جدير بالذكر أن يوحنا الدمشقي ووالده كانا في خدمة البلاط الأموي بدمشق منذ أيام معاوية ابن أبي سفيان . راجع حسين مؤنس : عالم الإسلام ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(١) حسين مؤنس : عالم الإسلام ص ١٧٤ - ١٧٥ .
(٢) صابر دياب : دراسات في تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها (الفصل الخاص بدور المصريين في الفتح الاسلامي) .



أولئك الرهبان ، الذين أعماهم التعصب ، حتى بلغ بهم مبلغ الجنون . وكانت مثل هذه الأحداث خيراً وبركة على الاسلام . اذ زاد اقبال الناس عليه واشتد حبهم له وتعلقهم به . وهكذا . . « يسلك الاسلام مسالك شتى ، ويتسلل الى القلوب من مداخل كثيرة »^(١) . وما كان ذلك الا بفضل اخلاص الرعيل الأول والتابعين سواء كانوا فاتحين أو ولاة أو علماء أو دعاة .

وقد يكون الداعية المسلم من أهل الدين والعلم ، فيدفعه دينه الى أن يهب نفسه للدعوة . فيخرج بها في بلاد الكفر داعياً مسلماً ، فتنشأ على يديه جماعة اسلامية ، تتحول بدورها الى مركز تنتشر فيه ومنه أنوار الدعوة . كما قد يكون الداعية المسلم مؤمناً عادياً ، مشغولاً بالتجارة أو ممتنناً صنعة أو حرفه (فلا رهبانية في الاسلام ، ولكن عبادة وعمل) فيرحل الى بلاد الكفر طلباً للمعاش . فاذا التقى بغير المسلمين دعاهم للاسلام والايمان بما يؤمن به ، فيتبعونه ويصبحون مسلمين^(٢) .

على أن أوسع مداخل الدعوة وأوفاهها بالغرض كانت القدوة الطيبة والأسوة والموعظة الحسنة . أي أن يكون المسلم - الوافد على بلاد الكفر - من أهل التقوى والدين المتين والخلق القويم . وليس من الضروري أن يكون فقيها متضلعا متبحرا في الدين وعلومه . فقط

يكفي خلقه القويم ، وحسن معاملته للناس ، ونظافته ظاهراً وباطناً ، وحسن سمته ، وتعاونه مع غيره . . . وهي كلها خلق الاسلام والصفات التي يجب أن يكون عليها المسلم الحق ، مما يحبب الناس فيه وفي دينه ، فلا يزلون في اعجاب به وبمسلكه ، حتى تهوى أفئدتهم الى ما يؤمن به ، أملاً في أن يكونوا مثله وعلى سمته^(١) .

وهذا بذاته كاف وكفيل بنشر الاسلام خلال القرن الأول الهجري . ولا غرو ، فقد كان العرب الذين استقروا في البلاد المفتوحة قوماً على خلق وحسن سمته وايمان بالاسلام عميق . حقاً لقد وقعت بين بعضهم وبعض حروب ومنازعات في الأمصار ، خاصة في ايران ، وبلاد المغرب ، والأندلس . لكن هذه المنازعات اقتصرت عليهم فحسب . فلم ينل أذاها غيرهم ، ولم يعتدوا على أهل البلاد ، ولا هم غصبوهم أرضاً ولا عقاراً ، ولا تصرفوا معهم تصرفاً غير سليم « أيا كان حجمه وكيفيته »^(٢) . على أننا يجب ألا ننسى بعد كل هذا وقبله أنهم ليسوا الا بشراً « وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

ومن المهم القول أن المسلمين - فيما مضى - لم يكن لهم خطة أو سياسة موضوعة لنشر الاسلام ، يقوم عليها رجال متخصصون - كما هو الحال في النصرانية - الا في العصر الحاضر عندما تزايدت تيارات وحركات التنصير ، مما جعل المسلمين يرون ضرورة التخطيط للدعوة والعناية بها تنظيمياً

(١) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١٠ - ١١ .

(٢) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١١ .

(١) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١٠ .

(٢) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١٠ .

على بلادهم ، شدة الحرص على ادخالهم في دينه
أونحلته . فلماذا اختلف الحال عند أولئك الفاتحين
الجدد (العرب) ؟ . لماذا لا يلحون - مثلما فعل
من كان قبلهم من الغزاة - على الناس في اعتناق
الاسلام ؟ ولماذا لم يستخدموا القوة في ذلك ،
مثلما فعل الرومان والروم من قبل ؟ . لماذا لم يفعلوا
ذلك ولو مرة واحدة في تاريخهم كله ؟ .

يقول الراهب يولوج - وهو من أشد المبغضين
للإسلام - محلاً - بتعصب وافتراء - هذه الظاهرة :
« فكان من مكر العرب أن تظاهروا بأنهم لا يهتمون
بدخول الناس في الإسلام ، فتطلعت نفوس الناس
الى ذلك الإسلام ، فودّوا لو أنهم يتعرفون عليه ،
علّهم يعرفون السبب في اختصاص أنفسهم به ،
وضنّهم به على غيرهم ، فما زالوا يفعلون ذلك ،
ويسألون عن الإسلام ، ويستفسرون حتى وجدوا
أنفسهم مسلمين ، دون أن يدروا (٣) .

والحق أن مقولة هذا الراهب المتعصب على ما
فيها من ظلم للعرب ؛ حيث اتهمهم بالمكر ؛ فانه
يقرر دون أن يدري حقيقة هامة وقع في أمر اغفالها
وجحودها غيره من أمثاله ، وهي عدم اجبار أحد على
اعتناق الإسلام . والا لما ترك العرب الناس لا
يهتمون بامر دخولهم الإسلام ولا يجبرونهم على
ذلك . كما أنه فاتته حقيقة هامة ، ربما أعماه عنها
ضباب التعصب ، الذي وضع على بصيرته قبل
بصره غشاوة ، فصار لا يبصر الشمس في رابعة
النهار . وهذه الحقيقة هي أن الإسلام أمر اتباعه

لوسائلها ، وأعدادا للدعاة القادرين عليها . أما ما
حدث قبل ذلك فكان : أن الإسلام قام بنشر نفسه
بنفسه . فهو الذي دعا لنفسه ، واجتذب قلوب
الناس ، فأسلموا حبا في الإسلام ، وشغفا به ،
واعجابا بتعاليمه ، والتماسا للرحمة والهداية من الله
سبحانه وتعالى في الآخرة (١) .

والجدير بالذكر أيضا في أمر انتشار الإسلام ، أن
قوة الإسلام الذاتية غلبت تنظيمات الدعاة ، وأثبتت
أنها أجدى وأفعل من المال الذي ينثره الآخرون على
دعواهم وأباطيلهم . فانتشر الإسلام واتسع مداه ،
ودخلت فيه الأمم من تلقاء نفسها بمجرد وصول
الدعوة إليها .

فلقد كان العرب يفتحون البلد ويعرضون
الإسلام على أهله ، ثم يدعّوهم وشأنهم ، حتى
يقتنعوا بفضائل الإسلام الانسانية على هيئة . حتى
لقد ذهب بعض الشائنين للعرب الى أنهم لم يكونوا
يهتمون بنشر دينهم ، وأن الجزية كانت أحب اليهم
من الإسلام ، وما الى ذلك مما نجده مسطوراً في
كتب اعداء الإسلام والمسلمين (٢) . وما درى
هؤلاء أن الأسلوب الذي سار عليه العرب في عرض
الدين ، كان هو نفسه عاملاً رئيسياً وهاماً في اقبال
الناس في البلاد المفتوحة على الإسلام ، سواء في
مصر أو المغرب أو الأندلس ، أو أي قطر فتحه
المسلمون بعد ذلك .

لقد كان مسلك العرب هذا غريباً حقاً على
أهالي البلاد التي دخلوها . اذ تعود هؤلاء ، ممن يغلبهم

(١) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١٤ - ١٥ .

(٢) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١٥ .

(٣) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١٥ - ١٦ .

القبيلة ، ويحدّثه ويدعوه للإسلام ، فيسارع هذا الى الايمان ليكون بعد ذلك من طليعة رجال الاسلام وساعدَ عقبه ابن نافع الأيمن ، ثم سرعان ما يعقبه قومه^(٢) .

ان مداخل الاسلام هي سماحته وبساطته وانسانيته . إذ يقدم للمؤمن به الاطمئنان وسكينة النفس وهدوء البال . ويفتح للمؤمن به الى الله سبحانه بابا واسعا - دون واسطة أو حجاب - للمغفرة والتوبة أملا في رحمة الله الواسعة ، وثوابه بجنت عرضها كعرض السموات والأرض أعدها الله لعباده المتقين ، وكل ذلك دون مقابل . بينما الحال في أديان أخرى - كالمسيحية واليهودية - تفرض طقوسها الموضوعة الالتزام بطاعة القسيسين والرهبان ، الذين جعلوا أنفسهم واسطة بين أتباعهم وبين الله ، وإشعارهم أن مفاتيح الجنة ، بأيديهم مرتبطة برضاهم على رعايا كنيستهم . أما في الاسلام فالحال غير هذا تماما ، فهل نستكثر أو نستغرب - بعد ذلك - أن يقبل الناس على الاسلام لما وجدوه سهلا ذلولا .

وبعد . . . لذلك كله فلقد فتح المسلمون - خلال القرن الأول الهجري - بلاد العرب كلها ، والعراق ، وفارس ، والشام ، وجزءاً من آسيا الصغرى ، ومصر ، والشمال الاغريقي ، وشبه القارة الأيبيرية (الأندلس) .

وقد سَيرت الخلافة الاسلامية الجيوش نحو كل قطر من هذه الأقطار ، وألقت في ميادينها بآلاف العرب ، وأمدتهم بالمؤن والأعطيات .

بعدم اكراه أحد على اعتناقه . . وهو ما قرره الله سبحانه في قرآنه الكريم في سورة البقرة حيث قال عز من قائل ﴿ لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي . . . ﴾^(١) [الآية] .

كذلك قال الراهب القبطي يوحنا النقيوسي شيئا من قبيل ما قاله يولوج ، حيث أبدى أسفه وتألّمه لعدم لجوء العرب الى القوة في فرض الاسلام . لأنهم لو كانوا قد فعلوا ذلك ، لزاد تثبث الأقباط بعقيدتهم ، على مذهب العناد ، ورفض كل ما يفرض بالقوة ، ولوجد الاسلام هذا الطريق الميسر الى القلوب في كل بلد دخله مسدودا .

والحق أن من العجيب فعلا أن يقبل أقباط مصر - الذين استبسلوا ضد الروم ، وقتل منهم من قتل في سبيل عقيدته - على الاسلام ، وهذا أمر جدير بأن يدعو للتساؤل والدهشة . ولكن سرعان ما تتبدد تلك الدهشة وذلك التعجب بمجرد علمنا أن الاسلام انساب كالماء البارد ، فرطب نفوساً ظمئة ، وأثار قلوباً مظلمة ، وروى أفئدة جَدْبَة . فكان انسياب الاسلام في النفوس ، كالنسياب الماء في الأرض العطشى ، التي تلقفته فازهرت واخضرت وأثمرت بإذن ربها .

وفي بلاد المغرب كان التحول للإسلام يتم ببسر وسهولة تدعو كذلك للانبهار والدهش ، بعد أن رأى أهله نماذج اسلامية وضاءة في أشخاص مثل : عقبه ابن نافع ، وصحبه ، ومن اعقبه من صناديد الاسلام وأسوده الأشاوس . فهذا الرجل الفريد في بابهِ ، الذي وهب نفسه للإسلام ، كان يلتقي رئيس

(٢) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١٥ - ١٦ .

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٦ .



الجيوش الاسلامية ، في محاولة منهم (أي من البيزنطيين) لوقف تقدم المسلمين في الجبهة الغربية (بلاد المغرب) ، وذلك في وقت كانت فيه خبرة المسلمين بالحرب البحرية لا تزال قليلة^(١) .

على أن الأمر الواضح والمؤكد أن المسلمين أمكنهم السيطرة على بلاد المغرب حين نجحوا في أكتساب قلوب البربر عن طريق نشر الاسلام بينهم ، وحين أشركوهم معهم في الجيوش العربية كجند مجاهدين . هذا الأمر يعد حدثاً فريداً في نوعه ، وتطوراً له ما بعده في تطور السياسة العربية في هذه الفترة المبكرة من تاريخ دولة الاسلام .

إن المسلمين (العرب) لم يجندوا أهالي البلاد المفتوحة على نطاق واسع قبل فتح المغرب ، وكانوا يعتبرون أعمال السياسة ، والحرب من صميم اختصاصهم وحدهم . وربما يكون تشابه البربر في حياتهم مع حياة العرب كان له أثره في إقدام العرب الفاتحين على الاستعانة بالبربر في تجيش الجيوش ، والاعتماد عليهم في الفتوح الاسلامية في بلاد الأندلس فيما بعد^(٢) .

وكان من الضروري أن تواكب اللغة العربية حركة انتشار الاسلام . وذلك ليتمكن من أسلم من البربر ، من قراءة القرآن ، وآداء الشعائر الدينية ، وفهم تعاليم الاسلام . وعلى ذلك يمكن القول أن البربر تعرّبوا ، وأكتسبوا ما تفيده تلك اللغة من تفكير وتعبير . فصارت لهم

ولم يتم الفتح في معظم هذه النواحي بدون معارك دامية ، راح فيها آلاف من المسلمين شهداء ، ملّين نداء ربهم ودينهم . مثلما حدث في فتح بلاد المغرب الذي استشهد فيه الكثير أمثال : عقبة بن نافع ، وابو المهاجر ، وزهير بن قيس ، وحسان بن النعمان ، وغيرهم كثيرين عن الحصر .

وقد استغرق الفتح الاسلامي لبلاد المغرب مدة طويلة ، تزيد عن الستين عاماً (٢٣ - ٨٧ هـ) . وهي مدة طويلة نسبياً اذا ما قورنت بالفتوحات الاسلامية الأخرى في كل من فارس ، أو بلاد الشام ، أو مصر . إذ أن العرب اجتاحت بلاد الشام ومصر وقبلهما العراق في مدة لا تزيد على العشر سنوات . أما فتح المغرب فقد أمتد - كما قلنا - من سنة ٢٣ هـ حتى قرب نهاية القرن الأول الهجري .

ولعل هذا يكون راجعاً بالدرجة الأولى الى مناعة البلاد ، وشدة مراس أهلها وشجاعتهم في القتال ، وهي شجاعة كانت - فيما بعد - خير زاد للمسلمين في فتوح الأندلس وهو أمر ملموس الى اليوم .

ومما لا شك فيه أن هناك عوامل أخرى ساعدت على طول مدة الفتح لبلاد المغرب ، أهمها : انقسام المسلمين على أنفسهم أبان الفتنة الكبرى التي أودت أحداً منها بحياة ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وما نجم عن ذلك من توقف حركة الفتح الاسلامي توقفاً كاملاً على كل الجبهات . هذا الى جانب الغارات البحرية التي شنّها البيزنطيون على

(٢) أحمد مختار العبادي : المرجع السابق ص ٤٩ .

(١) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٩ .

نصير بنفوس البربر المتوثبة دائماً للحركة والكفاح ، فاستغلها أحسن استغلال وأعظمه ، فكان بذلك خيراً وبركة على دولة الاسلام ، ولحركة الفتح الاسلامي بالأندلس^(٢) .

لقد كانت السياسة الاسلامية ، التي طبقها العرب في بلاد المغرب ، ابان عصر الولاة وبعده ، تقوم على أساس واضح ، ربما لم نجد له نظيراً في الولايات الأخرى . اذ كان أساس هذه السياسة هو توطيد صلات الأخوة والتعاون بين العرب ، والبربر . إيماناً من جانب العرب بالنتائج المذهلة التي تحققت بعد هذا التلاحم التاريخي . فقد أنهى المقاومة البيزنطية ، وذل العقبات أمام العرب ، وأخضع في النهاية دولة القوط في الأندلس للسيادة الاسلامية^(٣) .

ولتحقيق هذه السياسة أطلق العرب - وهم الفاتحون الغالبون - أيدي البربر - أبناء البلاد الذين تعاونوا معهم - في أمور بلادهم ، يحكمون بأنفسهم . اذ قُسم المغرب الى خطط (أحياء) ، اختصت كل قبيلة بخطة تتصرف فيها وتؤدي مالها (خراجها) ، وتكون مسئولة عنها . وهذا النظام يتفق وطبيعة التكوين النفسي للبربر ونظام حياتهم الاجتماعي . فلم تكن بالمغرب وقتذاك مزارع واسعة تتركها الحكومة في يد أصحابها ، كي يزرعونها ويؤدوا الأموال عنها ، إنما كانت مناطق أختصت كل قبيلة بالنفوذ فيها .

نفس العقلية العربية ، كما وجد فيهم الفقهاء والشعراء والخطباء . ونشأت بينهم المذاهب الاسلامية ، سياسية ودينية - كالشيعية والخوارج والمعتزلة^(١) ، وصارت حياتهم ومعاملاتهم قائمة على أساس مبادئ الاسلام وتعاليم الشرع الحنيف .

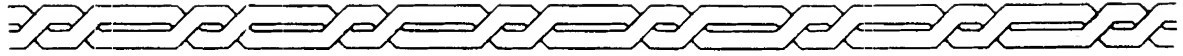
هكذا نرى أن الفتح الاسلامي العربي لبلاد المغرب ، قد مسّ صميم الحياة المغربية ، ونقلها من حال إلى حال . ولذلك فهو يختلف تمام الاختلاف عما سبقه من غزوات الرومان أو البيزنطيين . فأولئك لم يحولوا المغرب إلى اقليم روماني أو بيزنطي ، وإنما بقوا مجرد جيوش احتلال وتسلط فقط . بينما الفتح الاسلامي العربي كان أقوى أثراً وأعمق تأثيراً مما سبقه من غزوات ؛ فهو فتح ديني ، وحضاري ، وفكري قبل أن يكون فتحاً عسكرياً وبعده . وقد نتج عنه اندماج المغرب بأهله - بل انصهاره - في جسم الدولة الاسلامية ، فانصهروا في بوتقة المجتمع الاسلامي ، بحيث صار للمغرب وأهله طابعهم المميز حتى اليوم .

ولا شك أن هذا التحول الفريد الذي طرأ على بلاد المغرب ، عقب الفتح الاسلامي ، كانت له آثاره الايجابية في حركة الفتح الاسلامي في بلاد الاندلس . لأن معظم قبائل البربر التي أسلمت تآقت نفوسها للجهاد في سبيل الله . وقد أفاد القائد الفذ موسى بن

(٣) صابر دياب : محاضرات في تاريخ المغرب والاندلس ص ٦٤ ، حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١١ - ١٢ .

(١) أحمد مختار العبادي : المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢) أحمد مختار العبادي : المرجع السابق ص ٥٠ .



الخلافة عليها .

ونظام الولاء نفسه مظهر ودليل واضح وقوي ، على نجاح عملية المؤاخاة بين العرب وأهالي البلاد التي دخلوها . ولا غرو ، فلحمة الولاء كلحمة النسب سواء بسواء . و« مولى القوم منهم » .

ولذلك فمن الجدير بنا أن نتوقف هنيهة نتأمل ظاهرة الولاء التي لم يدرسها مؤرخو الاسلام حق دراستها ، مع أنها ظاهرة اسلامية مرتبطة أشد الارتباط بطبيعة الاسلام واخلاقياته . وكانت كذلك من أكبر عوامل اسلام الناس طوعية واختيارا في كل البلاد التي دخلها المسلمون (٢) . فنسمع عن موالي خالد بن الوليد ، وموالي موسى بن نصير ، وموالي عبد الله بن عامر . ومنهم من دخل في ولاء قريش عامة ، وهؤلاء هم الذين يقال عنهم في كتب التراجم « مولاهم » . فأصبحوا بذلك أعضاء في الجماعة الاسلامية الجديدة القائمة على الولاء التام لرئيس الجماعة الأول محمد رسول الله ﷺ .

ولم يكن الولاء الاسلامي يعني انتقال رق أو تملك رقبة وإنما معنى الولاء في الاسلام ، هو إقامة وضع قانوني لأولئك الناس في دولة الاسلام . وما دامت الخطة أو القرية ، قد دخلت في ولاء أحد من العرب ، فقد أصبح لأهلها وضع قانوني معترف به في الخريطة الاجتماعية والسياسية لدولة الاسلام (٣) .

والحق ، فأن هذا الولاء كان في حقيقته تحريرا للناس ، ورفعاً لهم الى مقام المواطنين في دولة

ومضى العرب في سياسة التآلف مع البربر والتلاحم معهم إلى أبعد الحدود . فتمت المساواة بين الفريقين في الفياء والغنيمة ، كما تساوى الطرفان في الحقوق والواجبات ، تنفيذا لتعليمات الاسلام الحنيف . وقد أرضت هذه السياسة غرائز الشعب في بلاد المغرب وهو شعب قوي محارب شديد المراس أنوف ، ليس من السهل أن يرضى بأي شيء .

واستهداءً بهذه السياسة ، اعتبر العرب أرض المغرب أيضاً مفتوحة صلحا ، لا عنوة . فأقروا البربر على ما بيدهم من أرض ، وتركوا هذه الأرض في يد أصحابها يؤدون عنها المال الى بيت مال الخلافة ، وأعتبر البربر أحراراً في بلادهم . وكانت هذه كلها أمور جعلت من البربر شعباً شديد الولاء للاسلام ودولته (١) .

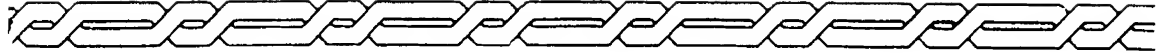
وكان هذا الولاء الشديد ، وذلك التحالف الوثيق الصلة - بين العرب والبربر - مما مكن بني أمية من ادارة أمور المغرب بنجاح ، حتى قتل « مروان بن محمد » - آخر حكام بني أمية - وسقطت الدولة الاموية سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) .

فلما حاول العباسيون تغيير هذا النظام ، واستبدال تلك السياسة ، انبعثت الثورات في بلاد المغرب دفاعاً عن الحق المكتسب . واتخذت هذه الحركات من مبادئ الخوارج متنفساً لها . وتستمر ثورة وغلجان بلاد المغرب - على هذا النحو - حتى ظهور الامارات المستقلة فيها ، وضعف سلطان

(١) صابر دياب : المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١١ - ١٢ .

(٣) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١٢٠ - ١٣ .



الاسلام . ذلك أن الولاء يشترط الاسلام ، فلا يدخل أعجمي في ولاء عربي إلا اذا أسلم . ومعنى ذلك أن الولاء ، وهو نظام عربي اسلامي ، كان ادخالاً للناس في الاسلام ، ثم تقريباً لهم بعد ذلك ودمجاً في مجتمع المسلمين . كما كان تحريراً للناس وفكاً لرقابهم ، ورداً لكرامتهم الانسانية . ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا أن أغلب أهل العراق وايران تخلصوا من الرق ، وعرفوا الحرية والكرامة الانسانية مع الفتح الاسلامي ، وكذلك الحال في بلاد المغرب^(١) .

لقد اعتر الناس في المغرب ، وبعد ذلك في الأندلس ، بالولاء العربي الاسلامي على طول القرون . فكانت رابطة الولاء من القوة بحيث جعلت الموالي أو موالى بني أمية في الأندلس جماعة ممتازة فيه في عصر الولاة . وعندما وصل عبد الرحمن (الداخل) بن معاوية الثاني بن هشام ، كان موالى بني أمية هم الذين أيدوه في اقامة دولته هناك^(٢) .

وبفضل هذا الولاء - إلى جانب عوامل أخرى ذكرناها قبلاً - انتشر الاسلام كذلك في البحر والبر ، بالسلم قبل الحرب فاخترق الجبال والشعاب والوديان . وأوجد لنفسه من الطرق والمسالك والمفاوز ما لم يخطر على بال أحد .

ومن عظمة الاسلام أن أشترك في نقله حتى الكفار والمستشرقين ، الذين منهم من نصح حكومته بترك الاسلام ينتشر لينشغل الناس به ، ويتركوا التجارة والمال للهولنديين ، وأخذت هولندا بنصيحته ، فكانت تلك النصيحة من هذا الكافر سبباً

في الاسراع بالاسلام في أندونيسيا ليعمها كلها . وصفوة القول أن أكبر داعية للاسلام كان هو الاسلام نفسه بعقيدته البسيطة الواضحة ، وشرائعه بما فيها من فضائل تجعل الناس شديدي الحرص على الاسلام ، الذي يمنح معتنقيه كل شيء دون أن يطالبهم بشيء سوى عبادة الله الواحد الديان وابتغاء مرضاته .

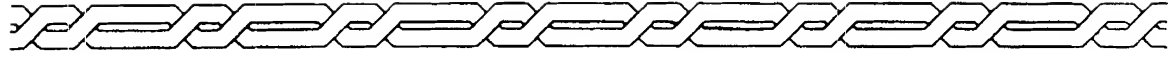
فالانسان في الاسلام يكسب حسن الصلة بالله مباشرة ، دون واسطة . اذ يقف بين يدي ربه كل يوم خمس مرات يناديه ويناجيه دون حجاب . على عكس الحال في الطقوس الموضوعة في الديانات الأخرى .

ولعل هذه الصفات في الاسلام تجعلنا نصفه بأنه دين طيار ، ينتقل من انسان لانسان ، ومن أمة لأمة بسهولة ويسر : « كأن أجنحة قدسية تحمله وتجري به مجرى الريح » . إنه هو الاسلام نفسه ، جعله الله خفيفاً على القلوب ، قريباً الى النفوس ، فهو الرّبي الذي تظماً اليه النفوس ، وتستقي به وترتوي . والموت في نظر الاسلام رحلة أو مدخل الى حياة أخرى أفضل وأبقى ، تكون أسعد لمن صدق إيمانه ، واتقى ربه ، وعمل لرضاه .

والانسان في الاسلام يحس بوجود الله في نفسه ، وفي كل من وما حوله بالبصيرة المنيرة المستضيئة بنور الهداية . والحقيقة الكبرى في هذا الكون هي خالق هذا الكون . . وهو - سبحانه وتعالى - الحق ولا حق غيره . ونبيّه حق ، وما جاء به

(١) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١٣ .

(٢) حسين مؤنس : الإسلام الفاتح ص ١٣ - ١٤ .



هو الحق ، والحق أحق أن يتبع ﴿وذكر فإن الذكري
تنفع المؤمنين﴾ ، و ﴿لينصرون الله من ينصره ان
الله لقوي عزيز﴾ .

وقد يبدو لبعض المغرضين المبغضين للحق أن
يجادل أو يماري في حقيقة أن الاسلام لم ينتشر بالقوة
والعنف . منكر أن غاية الفتح الاسلامي - في أي
مكان وصل إليه المسلمون - كانت ازالة العقبات
الواقفة حائلاً دون الناس والاسلام .

فكلمة الحق التي جاء بها الاسلام ما تكاد تصل
للنفوس الطيبة الصافية ، حتى تنفذ في شغافها ،
وتنقلها الى رحاب الايمان . وهؤلاء المبغضون
المعاندون قد أعفانا الله سبحانه ، من عناء جدالهم
ولجاجهم ، فقال سبحانه في سورة الكهف^(١) :
﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ،
وكان الانسان أكثر شيء جدلاً . وما منع الناس أن
يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن
تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلاً ، وما
نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ، ويجادل
الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ، واتخذوا
آياتي وما أُنذروا هزوا ﴾ . صدق الله العظيم .

ومع كل ما يبديه المعاندون المبغضون من جحود
ولجاج ، فإن مهمة المسلم هي - دائماً أبداً - أن يظل
يدعو إلى الله بالحسنى ، دون يأس أو كلال . يحدوه
دائماً الحرص على أن تنتشر كلمة الله ، لتصل الى
كل نفس ، وليظل المسلم مستحقاً لصفة الخيرية
التي وهبها الله لأمة الاسلام بقوله : ﴿ كنتم خير أمة

أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن
المنكر وتؤمنون بالله ﴾ . صدق الله العظيم .

واعتمادنا في تبليغ رسالة الاسلام ، على ربنا
سبحانه الذي يقول ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل
فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾^(٢) .

والحق الذي لا شك فيه ولا مرأى ، هي أن
الاسلام لم ولن يتوقف سيره . وسواء أكانت هناك
دولة قوية تعمل على نشره أو لم تكن هناك إلا دول
اسلامية ضعيفة مفككة متناحرة متدابرة ، لا تقوى
أي منها على الحفاظ على كيائها ، وسواء أكانت
جماعات الاسلام وشعوبه آمنة أو محاطة بالأعداء
مثقلة بالأزمات ، فإن الاسلام يسير في العادة في
طريقه الذي رسمه له الله ، مظفراً . لا يتأثر بأحوال
المسلمين ، وما يجري عليهم أو فيهم من صروف
الزمان وتقلبات السنين .

اننا نلاحظ ازدياد انتشار الاسلام في حالات
ضعف المسلمين السياسي ، كما نرى في انتشار
الاسلام السريع والقوي في أفريقيا أثناء عصور القهر
والاستعمار في العصر الحديث^(٣) .

ولو نظرنا بتأمل الى بلاد الاسلام ، لوجدنا أن
الاسلام هو سبب قوتها وعزتها ، وهو عنصر بقائها ،
وفيه اكسير حياتها ، وهو مصدر حضارتها ، وملهم
وجدانياتها . . وعموماً هو أساس ومصدر كل خير
يعرفه بنو الاسلام .

د . صابر محمد دياب ، حسين

(٣) حسين مؤنس : عالم الإسلام ص ٧٩ - ٨٠ .

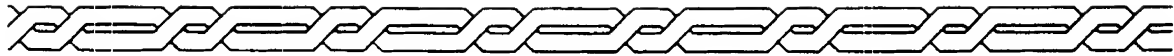
(١) سورة الكهف آيات ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة الأنبياء : آية ١٨ .

المصادر والمراجع

أ - المصادر والمراجع العربية :

- ١ (ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) علي بن احمد بن ابي الكرم
- الكامل في التاريخ . ١٢ جزء ، ط . بولاق ، مصر ، ١٢٧٤ هـ .
- ٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة . ٦ أجزاء ، ط . القاهرة ، ١٢٨٠ هـ .
- ٣ (احمد مختار العبادي .
- في تاريخ المغرب والأندلس . مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، بدون تاريخ .
- ٤ (ارنولد ، توماس .
- الدعوة الى الاسلام . ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوي . ط .
ثانية ، القاهرة ، ١٩٤٧ م .
- ٥ (البلاذري ، (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) احمد بن يحيى بن جابر .
- فتوح البلدان . ط . القاهرة ، ١٣١٨ هـ .
- ٦ (حسن ابراهيم حسن .
- تاريخ الاسلام السياسي . النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤ م . (٤ اجزاء) .
- ٧ (حسين مؤنس
- فتح العرب للمغرب . القاهرة ، ١٩٤٧ م .
- ٨ - ثورات البربر في افريقية والأندلس (مقال منشور بمجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، العدد
العاشر ، المجلد الأول مايو ١٩٤٨ م .
- ٩ - عالم الاسلام . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .
- ١٠ - الاسلام الفاتح (سلسلة مطبوعات دعوة الحق . تصدرها رابطة العالم الاسلامي ، مكة المكرمة)
١٤٠١ هـ .
- ١١ (ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) عبد الرحمن بن محمد
- العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ اجزاء ، القاهرة ، ١٢٧٤ هـ .
- ١٢ (السلاوي ، ابو العباس شهاب الدين احمد بن خالد (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م)
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . ٤ اجزاء (تحقيق عبد المنعم عامر) ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ .



- ١٣) السيد عبد العزيز سالم
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس . مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ م .
- ١٤) - المغرب الكبير . ج-٢ ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، (صدرت طبعة جديدة منه بعنوان تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، ط . ٨٢ م الاسكندرية .
- ١٥) صابر دياب .
- دراسات في تاريخ مصر الاسلامية وحضارتها . النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .
- ١٦) - محاضرات في تاريخ المغرب والاندلس . ط . الخرطوم (مذكرات مطبوعة على الاستنسل) محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة ، فرع الخرطوم) ، ١٩٨٠ م .
- ١٧) ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ - ٨٧١ م) ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي .
- فتوح مصر وافريقية . القاهرة ، ١٩١٤ م .
- ١٨) ابن عذارى (ت اواخر القرن السابع الهجري) ابو محمد عبد الله ابن محمد المراكشي .
- البيان المغرب في اخبار المغرب . نشرة دوزي (٣ اجزاء) ط . ليدن ، بريل ، ١٨٤٨ - ١٨٥١ م .
- ١٩) الطبري (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) ابو جعفر محمد بن جرير .
- تاريخ الأمم والملوك . ١٢ جزء ، ط . القاهرة ، ١٩٣٩ م .
- ٢٠) عثمان الكعاك .
- مراكز الثقافة في المغرب . ط . معهد الدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
- ٢١) المالكي ، ابو عبد الله بن ابي عبد الله .
- رياض النفوس . تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١ م .
- ٢٢) النويري (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) .
- نهاية الأرب في فنون الأدب . ط دار الكتب المصرية .

ب - المراجع الأجنبية :

- 23- Gibbon, E.: The history of Decline and Fall of Roman Empire. London, 1881.
- 24- Goitein, S.D.:
— Studies on Islamic and History and Institutions. Brill, Leyden, 1968.
- 25- Mediterranean Society. Brill, Leyden, 1968.
- 26- Fournel , Henri:
— Studes sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes. Tome II, Paris, 1881.
- 27- Marçais, George:
Le Berberie Musulmaane et l'Orient au Moyen Age. Paris, 1946.